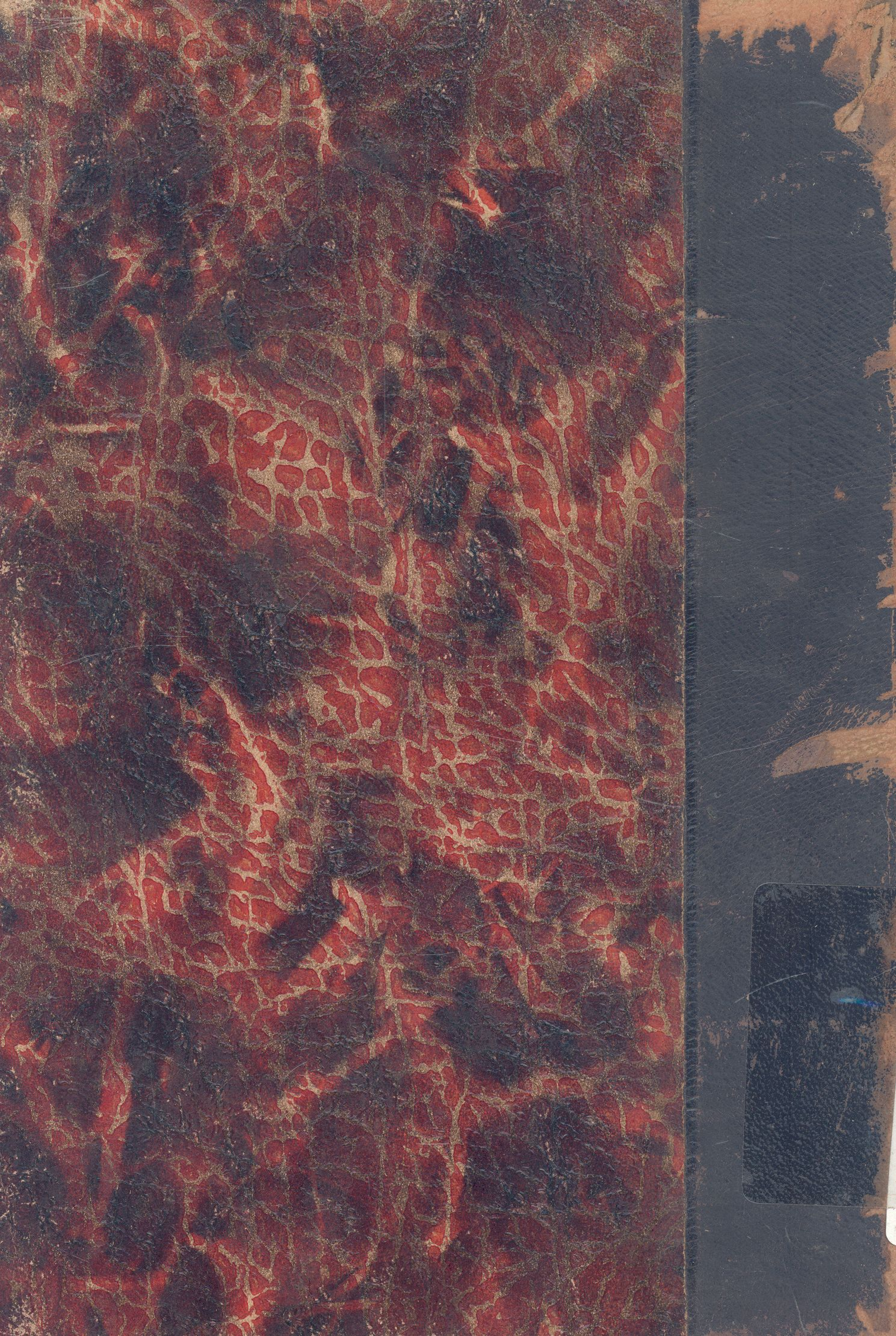


البشرية تبحث عن الله

تأليف

جورج برنارد شو

تعريب

حسن صبحي

الناشرون

مكتبة الهلال

بشارع الفجالة بمصر

طبع في

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضري

الأصل الأنجليزي

طبع للمرة الأولى فى ديسمبر ١٩٣٢
وطبع للمرة الثانية فى ديسمبر ١٩٣٢
وطبع للمرة الثالثة فى ديسمبر ١٩٣٢
وطبع للمرة الرابعة فى ديسمبر ١٩٣٢
وطبع للمرة الخامسة فى ديسمبر ١٩٣٢
وطبع للمرة السادسة فى ديسمبر ١٩٣٢
وطبع للمرة السابعة فى يناير ١٩٣٣
وطبع للمرة الثامنة فى يناير ١٩٣٣
وطبع للمرة التاسعة فى فبراير ١٩٣٣

الترجمة العربية

طبعت للمرة الأولى فى يونيه ١٩٣٣

هذا الكتاب

قرأته فأثارني وأنكرته ، ثم قرأته فعصف بي واستنكرته ، ثم قرأته فلم يهدئ عاصفة نفسي غير تعريبه ، الذي سيشرك معي قراء العربية في الاطلاع على لون جديد من ألوان التفكير الحر ، الذي لا عهد لنا به .

والدور الذي لعبته في هذا الكتاب كان شاقا ، تجاذبته عوامل مختلفة من الأفكار والاعجاب والحرص والتحرر ، لكن شيئا واحدا كنت أحرص على الالتصاق به دائما : وذلك هو أمانة النقل عن الأصل الانكليزي .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيه



— اين هو الله ؟

سؤال وجهته البربرية لمبشرتها التى أجابتها :

— هو يقول : « يجدنى من يبحث عنى »

والبربرية فتاة من سود أفريقيا ، ومبشرتها الانجليزية التى استطاعت أن تجعلها تعتنق المسيحية امرأة بيضاء ضئيلة الجسم لم تتخط بعد العقد الثالث من عمرها وكانت تحس وهى تعيش وسط عائلتها الانجليزية العريقة المحترمة فى بلاد الانجليز وحشة روحية جعلتها تهجر موطنها الى غابات أفريقيا تعلم الأطفال السود الصغار أن يحبوا المسيح وأن يقدسوا الصليب ، وهى تحمل مذ ولدت رسالة المحبة ، فكانت أيام دراستها تنتقل من محبة احدى مدرساتها الى الأخرى ، محبة تقديس لم يدع عدم اكتراثها بزميلاتها وأخدانها سبيلا للتقول عنها بسوء .

ثم بلغت الثامنة عشرة من عمرها فبدأت سلسلة حياة غرامية مع المريدين من القسس وتعلقت فعلا بستة منهم متعاقبين كانت كلما أوشكت أن تصل مع أحدهم الى الغاية قطعت صلتها به ، إذ يتبين لها أن هذا الحب الذى بدأ فى غيبوبة من السعادة والأمل لا يلبث أن ينكشف عنه ثوب الخيال وتتجلى الحقيقة فاذا بها مخدوعة فى النهاية ، ولا يستطيع القسس بدورهم وقد

قطعتهم فجأة وبغير سابق توقع أن يخفوا احساسهم بالنجدة كما لو كانوا قد اكتشفوا خيالية هذه الخيالات أو أنهم كانوا يلبسون ثوب استعارة هذه الحياة ليحاولوا اظهار الحقيقة فيه وهم أبعد مايكون عن الثوب الحقيقى للحياة .

وقد أدت هذه القطيعة المفاجئة مرة بأحد المحبين المقطوعين الى الانتحار ، ولشد ما كان سرورها بهذه المأساة الفاجعة التى نقلتها من فردوس الأوهام الذى كانت تسبح فيه بسعادتها الجنونية الى دائرة الحقائق التى سيطرت عليها فيها روح مجالدة آلام الحياة وصمودها لها . وهذه المأساة بذاتها كانت خاتمة أخيرة لكل ارتباطاتها الزوجية الغريبة ، ولو أنها لم تقع لآخر من ارتبطت بهم من القسس . لكن إحدى قريباتها ممن كانت تخشى ألسنتهن الطويلة كانت تدور حول تسميتها غانية تلعب بالرجال ، وذهبت الى حد إتهامها يوما بأنها لابد منتهية بخطيبها الأخير الى الانتحار، وسوف تنال على هذا قصاصا عادلا هو الشنق الذى صارت اليه كل امرأة سلكت ناحيه من هذا السبيل من قبل .

وكانت الفتاة رغم معرفتها بطلان هذا الادعاء ، وأن هذه القريبة لا تفهم نفسيتها بحكم أنها امرأة تعيش فى هذا العالم فقط ، إلا أنها كانت تعلم أيضاً من ناحية التفكير الدنيوى أن

ماقالته القرية حقيقة واقعة وأنه يجب عليها أن تقلع عن هذه اللعبة الغريبة — لعبة اغواء الرجال والايقاع بهم وهى تعلم أنها لاتستطيع أن تحفظ لأيهم عهداً.

وإذ انتهت الى هذا القرار الأخير فقد نبذت سادس القسس وهجرت موطنها الى ظلمات القارة الافريقية تثبت دعائم الصليب،وكان آخر ما أثارها مما اعتبرته أمام نفسها خطيئة فورة غضب قامت فى نفسها عند ما علمت أن هذا القسيس الذى نبذته تزوج من قريبتها ، ورقى بفضل جرأتها وحكمتها الدنيوية الى مركز كنائسى أسمى من مركزه رغم ارادته.

أما البربرية فقدكانت مخلوقا لطيفاً جعلت بشرتها الحريرية الناعمة المشدودة فوق عضلاتها من جسمها لمعانا يوحى الى العين أن تلك المبشرة البيضاء لم تكن غير طيف وهى فى لون متنافر مع البربرية السوداء وكان اعتناقها للمسيحية يثير اهتمام مبشرتها لما كانت تبديه من حب معرفة كل شىء والتشكك فى كل شىء . فبدلا من أخذها المسيحية طواعية كما كانت تلقنها ، كانت تقابل كل تعليم من تعاليمها بأسئلة غير منتظرة ألجأت مبشرتها فى كثير من الأحيان الى ارتجال نظريات تجيبها بها على أسئلتها وابتكار ايضاحات سريعة اتسعت دائرتها إلى حد أنها لم تستطع اخيراً أن تخفى عن نفسها أن حياة المسيح كما

لقنتها للبربرية أصبحت متخومة بالتفاصيل والمنـــاسبات والنظريات المصطنعة التى لو كان أتيح للرسل أن يسمعوا فى حياتهم أنهـــا وضعت على أساس تعاليمهم لأخذتهم الدهشة واختلط عليهم الأمر .

وفى الواقع كان اختيار المبشرة لهذا المكان النائى فى بادىء الأمر أثراً من آثار الرغبة الصادقة فى الانقطاع الى هذا العمل جملة إلا أن الأمر أصبح بعد قليل من الزمن ضرورة ماسة لأن مجرد ظهور مبشرة أخرى منافسة كان يؤدى حتما الى الكشف عن تلك المحشوات الظريفـة التى طبخت بها المبشرة الشابة عصيدة التعاليم الدينية لتسهل للبربرية تناولهـــا ، والتى وإن كانت مأخوذة أقاصيصها من الكتاب المقدس وبنفس شخصيات هذه الاقاصيص ، إلا أنها أصبحت تكاد تكون تعاليم دين جديد من وحى المبشرة نفسها ، لم يكن يعفيها بحال من الأحوال من تهمة الزيغ والمروق لولا أنها ألقت قنبلتها وهى وحدها واطمأنت الى أن كنيستها الخاصة قد فتحت فتحا بهذا التبشير المبتكر .

لكن هذا الاطمئنان لم يطل أمده، إذ لم تكد تعلم البربرية كيف تقرأ ثم تعطيها نسخة من الكتاب المقدس كهدية فى عيد ميلادها ولم تكد البربرية تسمع جواب مبشرتها عن مكان الله وتفهمه

الفهم الحرفى لكلماته حتى أخذت صولجانا خشبياً فى يدها وانطلقت متغلغلة فى الغابة الأفريقيـة تبحث عن الله ، وقد أخذت معها كتابها المقدس تسترشد به فى بحثها .

وكان أول مالقيته أفعى (المامبا) الهائلة الحجم ، النادرة الوجود التى تفتك بأى آدمى تلقاه فى طريقها .

كانت البربرية قد تعلمت عن أستاذتها المبشرة أن تحب كل المخلوقات وأن تصاحبها وتقتنى ما تستطيع أن تقتنيه منها ، ولا تؤذى واحدا من أى نوع اذا استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وألا تخاف شيئا ما ، فلما اقتربت منها المامبا شددت على صولجانها واقتربت منها وسألتها :

— ترى من صنعك أيتها المامبا؟ ومن الذى وهبك الرغبة فى قتلى ؟ ومن أعطاك هذا السم تنفثينه فتقتلين به ؟

رفعت المامبا رأسها وأشارت الى البربرية أن تتبعها ثم سارت أمامها فتبعتها البربرية الى كومة مرتفعة من الاحجار جلس فوقها رجل أبيض قوى البنية مهيب الطلعة ذو تقاطيع متناسقة عادية وشعر متموج ولحيـة ظريفة يجللها بياض الشيب ويجعل من ملامح الرجل جدا ورزانة تلزمان من يراه احترامه وكان الرجل يحمل فى يده شيئا كالعصا ، ولـكنه

ليس بالعصا لأنه اشبه بالصولجان على طوله وكان معه سيف طويل ، لم يكد يرى المامبا آتية ووراءها البربرية حتى ضرب المامبا بسيفه فقطع رأسها وماتت للحظتها وهى فى طريقها اليه فى خشوع وذلة

آذى البربرية التى تعلمت ألا تخاف شيئا أن ترى المامبا تقتل بيد رجل غير كامل التكوين لأنه أبيض، ويرتدى ثوبا طويلا أبيض يستر به جمال جسمه الذى يجب أن يبدو لكل عين بجماله الطبيعى فلم تستطع إلا أن تبدى مقتها حين خاطبته قائلة :

— اننى أبحث عن الله . فهل لك أن ترشدنى اليه ؟

أجاب الرجل :

— ها أنت بين يديه . اسجدى أمامى حالا واعبدينى أيتها المخلوقة التافهة . وإلا أنزلت عليك لعنتى . إننى سيد العفاريت . أنا الذى رفع السماء ، وأنا الذى بسط الأرض . وأنا الذى أوجد كل شىء بينهما . أنا الذى أعطى الحية سمها ، وأنا الذى أجرى اللبن فى ثدى الأم . فى يدى الموت وجميع الأمراض والبرق والرعد . والمطر والريح . وكل ما يؤيد عظمتى وجبروتى . هيا أيتها الفتاة على ركبتيك . وعندما تعودين أمامى مرة أخرى يجب أن تحملى معك أحب أطفالك



اليك وتذبحيه هنا أمامى قربانا ، فأنا أحب رائحة الدم الجديد الأراقة .

قالت البربرية معترضة :

ــ ولكن ليس لى أولاد بعد فأنا لا أزال عذراء .

ــ اذن فاحضرى والدك ليذبحك أنت ويقدمك قربانا لى . ثم ابحثى عن جميع أهلك وأقربائك واجعليهم يحضرون إلى كثيراً من الغنم يذبحونها أمامى ويشوونها لى وإلا أنزلت بهم طاعونا مخيفا يجعلهم يعرفون أنى أنا الله القادر .

أجابت البربرية :

ــ أنا لست طفلة لتهزأ بى كل هذا الهزء ! إننى باسم الله الحق الذى أبحث عنه سأهشمك كما هشمت أنت رأس الماميا المسكينة .

وأخذت تصعد فوق كومة الأحجار ، وقد رفعت صولجانها بيدها ، غير أنها لم تكد تصل الى قمة الكومة حتى تلاشى كل شىء ولم تجد شيئا ، وعادت أدراجها وجلست فى أسفل الكومة وأخرجت كتابها تسترشد به فى بحثها ولشدة دهشتها وجدت صحائف الكتاب الأولى تتفتت وتذرى كأنها ورقات كتاب قديم مضت عليه قرون ، أو كأن النمل

دخل الى هذه الصحائف فأكلها وجعلها رماداً يطير فى الهواء مما جعل الفتاة تألم لكتابها وتتأوه ثم تنهض مستأنفة البحث عن الله

وانطلقت البربرية تبحث عن الله فى الغابة، وكل سلاحها الصولجان والكتاب المقدس فلم تكد تخطو خطوات حتى أحست دبيب أفعى صغيرة فنادتها قائلة :

— أيتها الأفعى الأمينة . إنك لست فى شر الماميا الفاتكة، فأنا أعرف أنك لاتؤذين أحداً إلا مدافعة ، وإذن لا بد أن يكون ربك خيراً من رب الماميا ، فهل لك أن تدليني عليه ؟

رفعت الأفعى رأسها وأشارت إلى البربرية أن تتبعها ففعلت ، وتقدمت بها الى روشن صغير تحوطه الأشجار يقيم فيه رجل أوشك على الكهولة ، ينبىء بياض شعره ولحيته بأنه خاض غمارها فعلا ، وكان يرتدى أيضا قميصا أبيض ، وقد جلس إلى خوان مغطى بغطاء أبيض ، تكدست عليه مجلدات من أوراق النباتات المخطوطة ، وتناثر هنا وهناك ريش من أجنحة الملائكة كان يكتب به هذه المخطوطات .

نظر اليها فى حنان كثير خلال عينين كبيرتين تفيضان عطفاً ورحمة ، تعلوهما أهداب كثيفة ويسفلها شارب كبير متدل ، أوحيا إلى البربرية احساسا بما يقنع به هذا الآله

نفسه من الدهاء الذي يريد أن يبسط به نفوذه والذى اعتبرته البربرية حماقة غير خافية .

خاطب الأفيعي بصوت هادىء قائلا :

ـــ أيتها الأفيعي الطيبة ، لقد اتيت بمن يناقشني فها جزاءك

وأعطاها بيضة أخذتها طربة وسارت فى سبيلها تدرج بين الحشائش والتفت هو إلى البربرية وقال :

ـــ لا تخافى مني ، فأنا لست آلهاً قاسياً ، إنما أنا أحب المناقشة الصحيحة . أنا لا أطلب منك أن تعبديني بل أطلب أن تناقشيني وأن تبحثي عما فيّ من خطأ . لاتخشى على احساسى هيا . الق شيئا بين أسنانى نبدأ به المناقشة

فدار الحديث بينهما وقد بدأته البربرية قائلة :

ـــ هل أنت الذى خلقت هذا العالم ؟

ـــ بكل تأكيد . هو أنا . . . . .

ـــ طيب . ولماذا خلقت كل هذا الشر الذى فيه ؟

ـــ بديع جدا . هذا ما أردتك أن تسأليه . انك فتاة ماهرة ذكية . لست كخادمى جوب الغبي البليد الذى لم يستطع أن يتق غضبي عليه لقـلة فهمه ما أقول فأثارته امرأته على وأراد أن يقاومنى فأخذته بالاقناع والمناقشة حتى . . .

— ولكن .... ما كل هذا . لست أريد أن أناقش . أنا أريد أن أعرف إذا كنت حقيقة قد خلقت هـذا العالم، فلماذا خلقته بهذا القدر من السوء ؟

— بهذا القدر من السوء ؟ !! من انت أيتها الحشرة الصغيرة حتى توجهين الى خلق هذا النقد ؟ ! هل تستطيعين أن تعملى أنت خيراً منه ؟ هيا جربى . جربى أن تخلق شيئاً واحداً ! اصنعى حوتاً مثلا . هيا . هاك شيئاً صغيراً تافهاً . اخلق حوتاً واحضريه إلى هنا . هيا ! أأدركت الآن أنك لا تستطيعين ؟ فما بالك بمن خلق الحوت ، وخلق له البحار ليسبح فيها ؟ وخلق المحيط العظيم ورفع فوقه السماء الهائلة وخلق ما بينهما ؟ أظننت الأمر سهلا وأنك تستطيعين أن تعملى خيراً منها ؟ أيتها الصغيرة انك واهمة فلست تقوين على خلق فأر واحد ومع ذلك تحدثك نفسك أن تقفى فى وجهى . أنا المبدع لهذا الكون . أنت لا تستطيعين خلق بركة وأنا صانع البحار السبعة ! سوف تصبحين يا امرأة فى خمسين سنة عجوزاً قبيحة فانية ثم تنتهين بالموت ، ويبقى لى الدوام والخلد ومع ذلك فانك تحسبين نفسك خيراً من الله ! ما ردك على هذا الجدل ؟

ـــ أى جدل ؟ .. هذا ليس جدلا إنما هو تهويش . . .
ويبدو لى أنك لا تعرف ما هو الجدل !

ـــ أنا لا أعرف الجدل ؟ ! لا يسعنى إلا أن أضحك
منك أيتها الطفلة !

وأخذ يقهقه ضاحكا فقالت البربرية :

ـــ لست أعير ضحكك شيئا من اهتمامى ، لكنك لم
تقل للآن لماذا لم تخلق العالم كله عالم خير ، وخلقته خليطا
من الخير والشر ؟ وليس جواباً على سؤالى أن تسألنى بدورك
اذا كان فى استطاعتى أن أخلق خيراً منه ! لو كنت أنا الله
لما خلقت ذباب التستسى الذى يلدغ الناس ويميتهم . ولما خلقت
الأمراض ، ولحلت بين الناس وبين ارتكابهم الخطايا ! هل
تستطيع أن تفسر لى سبب وضعك كيساً من السم الزعاف
فى فم حية المامبا بينما غيرها من الأفاعى لا يحمل هذا السم
ومع ذلك فهو يعيش ؟ هل تستطيع أن تفسر لى سبب خلقك
القردة فى هذا القبح بينما خلقت من الطير ظرفاً وجمالا ؟

أجاب هو :

ـــ ولماذا لا أعمل كل هذا ؟ هل تستطيعين أنت رداً ؟
ـــ ولماذا عملته أنت؟ أليس يدل هذا على أنك محب للشر؟

ــ آه . ليست هذه طريقة للجدل

ــ اسمع . أن الآله الذى لا يستطيع أن يفسرلى ما أسأل عنه لانفع لى به . هل تستطيع أن تقول لى اذا كنت حقيقة خالق هذا العالم ــ ما ذنب الحوت الذى خلقته بهذه البشاعة التى أراه بها فى الصور ؟

ــ هذا من شأنى أنا . فلو أردت أن ألهو بخلق واصنع منهم القبيح والمضحك والبشع فهل يعنيك أنت هذا ؟ من أنت حتى انك تفكرين فى أن تملى على ارادتك فى خلق الأشياء ؟!!

ضجرت البربرية وصاحت :

ــ آه . لقد عدت الى تهويشك . أنا لا أصدق مطلقاً أنك عملت شيئاً . ويبدولى أن كثيراً من كهول هذا الغاب يخرفون بادعاء الالوهية . هيا إلى سبيلك

ورفعت صولجانها وهوت به على رأس الشيخ فتلاشى ولم يعد يظهر منه شيء واعتقدت البربرية أنه غار فى باطن الارض فعادت الى كتابها تفتحه ، ولشدة دهشتها وجدت ثلاثين صفحة أخرى قد استحالت رماداً يطير فى الهواء ، وتناثر فوق أوراق الاشجار .

وانطلقت تبحث عن الله . .

أثر إخفاق البربرية فى أن تجد الله فى ذينك الكهلين الاشيبين، اللذين كانا يرتديان ثيابا بيضاء فى نفسها تأثيراً شديداً جعلها تمقت اللحى الطوال البيض، والثياب الطوال البيض، والشعور الطوال المسدولة البيض ! فكان فرحها شديداً عندما صادفت فى طريقها فجأة شاباً مليحا، واضح الملاحة، حليقا أبيض فى زى اغريقى لم يسبق إن رأت مثله من قبل . خلبها حاجباه المفتوحان من طرفى رأسه فوقفت تنظر اليه ثم قالت :

ــ عفوا أيها السيد ! أن عينيك تنمان عن علم ومعرفة فهل لك أن تدلنى على الله ؟ انى أبحث عنه !

أجابها الفتى :

ــ لا تتعبى نفسك بهذا البحث. خذى الدنيا كما تأتى لك. وثقى أن لا شىء بعد نهايتها . فجميع الطرق تؤدى الى القبر وتنتهى اليه . والقبر هو باب اللاشيئية المطلقة . . . . وكل شىء فى اللاشيئية خيال بحت . خذى نصيحتى ولا تنظرى الى أبعد من أنفك فان الاحساس بأن هناك ما هو أبعد من هذا يجعل الانسان مؤملا وسعيداً ..

قالت الفتاة :



— أما أنا فعقلي يذهب الى أبعد من هذا، إذ ليس من الصواب في شيء أن يغمض الانسان عينيه . وأنا أبحث عن معرفة الله لأكثر مما في هذه المعرفة من سعادة وأمل . فالله هو سعادتي والله هو أملي . . . .

فاعترضها الشاب قائلا :

— وإذا اتضح لك أخيراً أنه لا يوجد آله ؟

— إني أكون امرأة شقية إذا كنت أعتقد ذلك .

— ومن علمك هذا ؟ يجب أن لاتخضعي لقوم كل همهم في الحياة أن يقيدوا عقلك في دائرة محدودة لايخرج منها . ثم لماذا تريدين ألا تكوني امرأة شقية ؟

أجابت البربرية في غضب :

— هذا منتهى السخف ! أن أكون امرأة شقية يعني أن أكون شيئا لا يجب أن أكونه !

— واذن يجب أن تعرفي مايجب أن تكونيه قبل أن تحكمي على نفسك بأنك امرأة طيبة أو شقية .

— هذا صحيح ! ولكني أعلم أنه يجب علي أن أكون امرأة طيبة حتى ولو كان في هذه الطيبة شر علي .

— وهذا شيء لامعنى له !

ـــ بالمعنى الذى تفهمه أنت ، ولـكن فيه معنى من معانى الله . وأنا أريد أن يكون لى إدراك هذا المعنى فاذا تحقق ذلك استطعت أن أجد الله .

ـــ وكيف تستطيعين أن تتصورى ماسوف تجدينه ؟ إن نصيحتى لك أيتها الفتـاة أن تعملى كل عمل يأتى اليك بقدر ماتستطيعين من الاتقان فى الوقت الذى يتـاح لك أن تعمليه فيه ، فتهيء بذلك لنفسك سعادة شغل أيامك الباقية فى هـذه الحياة قبـل نهايتها المحتومة حيث لا نصح ولا عمل ولامعرفة حتى ولا وجود .

أجابت الفتاة فى هدوء :

ـــ إنى أؤمن بالمستقبل بعد الموت واذا لم أره فانا أعرفه من الآن .

قال الفتى :

ـــ وهل تعرفين الماضى ؟ وإذا كنت لاتعرفين الماضى الذى وقع بالفعـــل فكيف تؤمنين بمعرفة المستقبل الذى لم يقع بعد ؟

ـــ ومع ذلك سوف يقع وأنا أعرف ما يكفى عنه لأن أقرر لك أن الشمس سوف تظل تشرق كل يوم .

ـــ وهذا أيضاوهم فالشمس يحترق كل يوم بعضها ولا بد أن يأتى اليوم الذى تنتهى فيه باحتراقها كلها .

ـــ إن الحياة شعلة دائبة الاحتراق تزيد اشتعالا كلما ولد لها طفل جديد . والحياة أعظم من الموت والأمل خير من اليأس ولهذا فأنا أعمل مايأتى لى إذا رأيت أن من الخير أن أعمله. ولكى أعلم الخير من الشر يجب أن أعلم الماضى والمستقبل ويجب أن أعرف الله .

ـــ إذن تعنين أنه يجب أن تكونى أنت أيضاً الله ؟

ـــ على قدر ماأستطيع . أشكرك . لقد وجدت الحكمة فى أفواه الشباب أكثر مما هى فى أفواه الكهول. حسنا. لقد تعلمت منك أن الانسان الذى يريد أن يعرف الله يجب عليه أن يكون هو الله . لقد غذيت روحى بهذا . ولكن قل لى قبل أن أغادرك من أنت ؟

ـــ أنا كوهيليت الذى يعرفه كثير من الناس باسم الخطيب وليكن الله معك إذا استطعت أن تجديه ! إنه ليس معى أنا ! تعلمى الاغريقية فهى لغة الحكمة . مع السلامة !

وأشار بيده اليها تحية وسار فى طريقه ، وانطلقت البربرية فى الطريق العكسى وقد ملكت كلمات الخطيب عنان فكرها،



وتعقدت فى رأسها الأفكار والآراء فنامت ولم تفق إلا على أنفاس حارة كانت تلهب وجهها، جعلتها تستيقظ فجأة فترى أمامها أسداً رابضاً بجوارها ينظر إليها متفرساً.

نهضت البربرية إذ أحست الاسد الى جوارها وربتت على رقبته بيدها وهى تقول:

— باسم الله أيها الأسد

ثم سارت فى طريقها مبتعدة عنه، إلا أن الأسد حن اليها وبدت على عينيه رغبة ملحة فى أن يصحبها، لكنها تركته وهى تعلم أن فى الغابة مخلوقات أقل منه ظرفا وأشد بطشا وأسرعت خطاها حتى صادفت رجلا أسمر ذا شعر مرسل متموج وأنف أقنى، ولم يكن يلبس غير صندل فى قدميه، وجسمه عار مجرد، وقد علت وجهه تجعدات تنطوى فيها أمارات الحنان والرقة برغم ما كان يبدو على أنفه الأقنى. وخياشيمه المفتوحة واركان فمه من الخشونة والفظاظة وهو وهو يجأر كالثور الهائج

رأى الرجل الأسمر البربريه فسكت وأراد أن يبدى عدم اهتمامه بها فلم تمهله وسألته:

— اسمع أيها السيد. هل أنت النبي الذى يسير عارياً

بين الناس يصيح كالغول ويعوى كالبوم ؟

فأجابها فى شىء من الاعتذار :

— أعمل شيئاً قليلا مما تقولين . واسمى ميكا . هل أستطيع أن أقوم لك بخدمة ما ؟

قالت الفتاة :

— أنا أبحث عن الله يا ميكا

— وهل وجدته ؟

— وجدت رجلا عجوزاً أرادنى على أن أشوى له الذبائح لأنه يحب رائحة الشواء ، وأن أذبح أطفالى قرباناً له

لم يكد ميكا يسمع هذا حتى انفجرت حنجرته بصوت كالرعد جعل ملك الغابة الغضنفر يقفز إلى بعد ويقف يرقب وذيله يلتوى ويهتز . وتابع الرجل الأسمر حديثه مع البربرية فقال :

— هذا مرعب وفظيع . هل تستطيعين أن ترى نفسك أمام الله العلى وأنت تحملين عجولا محروقة ؟ هل يسر الله العظيم أن يرى ألوف الكباش وأنهار الزيت أو أن يرى مولودك الأول مذبوحاً ، بدلا من هبة روحك له ؟ لقد أبدى الله لروحك معنى الخير ، وعلمت روحك أن الله يقول الحق ..



وماذا يريد الله منك أكثر من عمل الحق ومحبة الرحمة والتواضع له ؟

قالت الفتاة :

ــ وهذا إله آخر أحببته أكثر من ذلك الذى يريد الذبائح ، وأكثر من الآخر الذى يريدنى على أن أخضع لجدله وأسلم لكلامه الأجوف . لكن اسمع . ان عمل الحق ومحبة الرحمة ليست إلا جزءاً صغيراً مما فى الحياة إذا لم يكن الانسان قاضيا أو حاكما . وما هى الفائدة فى أن يتواضع الانسان فى سيره إذا كان لا يعلم إلى أين هو سائر ؟

فأجاب الرجل :

ــ تواضعى فيرشدك الله . ولا يهمك بعد ذلك إلى أين تصلين

قالت الفتاة :

ــ ولكنه وهبنى عينين لأسير بهما . ووهبنى عقلا وترك لى قيادة فكيف أتجه اليه بعد ذلك وأطلب منه أن يرينى ويقودنى ؟

انفجر ميكا كالرعد مرة أخرى ولكن بقوة أشد من المرات السابقة حتى أن ملك الغابة قفز هذه المرة قفزة بعيدة

وجرى نحو ميلين لم يقف فيهما خطوة ، وكذلك جرت البربرية في اتجاه آخر ، لكنها لم تجر غير ميل واحد ، ثم وقفت فجأة وساءلت نفسها :

ــ ولكن مم جريت ؟ أنا بالتأكيد لست خائفة من هذا العجوز العزيز

وقفت البربرية تلهث من التعب فسمعت صوتا هادئا خلفها يقول :

ــ ان مخاوفك وآمالك مجرد خيال .. !

التفتت الى مصدر الصوت فرأت رجلا عجوزا قصير النظر يضع على عينيه نظارات كبيرة ويجلس على كتلة كبيرة ، وقد استمر يقول :

ــ إن مجرد هروبك وجريك كان أثرا من الخيالات المشروطة . والتفسير بسيط للغاية فقد نشأت وأنت بين الاسود منذ نعومتك فاقترن زئير الأسود عندك بالخطر الداهم ، ومن أجل هذا فررت عند سماعك الرجل العجوز يزأر زئيرا مخيفا . وقد كلفتني معرفة ذلك بحث خمس وعشرين سنة بحثا دقيقا قطعت خلاله عددا لا يحصى من أمخاخ الكلاب ، وراقبت قوة الأبصار فيها بعمل خروق فى خدودها تساعد على الافراز

اللعابى بدل اللسان ، مما أدهش العالم بنتائج البحث العلمى وجعل العلماء يذكرون فضلى دائما فى حل المعضلات الخلقية فى الجنس الانسانى

حملقت الفتاة فى الرجل مندهشة ثم قالت .

ــ ولم لم تسألنى أنا ؟ كنت أستطيع أن أقول لك كل ذلك فى خمس وعشرين ثانية لا أكثر بدل تقطيع أمخاخ أولئك الكلاب المساكين !

فاجاب الرجل وهو يضحك :

ــ ان جهلك وقلة ادراكك لاحد لهما ، كل طفل صغير يعلم هذه الحقيقة الواقعة ، ولكن أحدا قبلى لم يبرهن عملياً ، واذن فقد كان العلم ينكرها بتاتا قبل أن أثبتها أنا ، لقد وصلت الىَّ وهى دعوى لا برهان عليها ، فأخرجتها للعالم حقيقه علمية ، هل سبق أنت أن قمت بأية تجربة ؟

أجابت البربرية :

ــ بكثير من التجارب وسأعمل الآن واحدة . هل تعلم الشىء الذى تجلس عليه ؟

ــ هى كتلة خشبية كبيرة قد كساها قدم العهد بقشرة سميكه خشنة .



قالت الفتاة :

ــ أنت مخطىء انما أنت تجلس على تمساح نائم

صاح العجوز صيحة منكرة لو سمعها ميكا لحسده عليها وقفز قفزة رعب شديد لا تتناسب مع كهولته وتسلق شجرة قريبة فى خفة وفزع شديدين كأنه قرد

فالتفتت اليه البربرية وقالت :

ــ انزل . انزل.. يجب أن تعلم أن التماسيح لا توجد الا على مقربة من الأنهار، انزل لقد كنت أقوم بتجربة فقط

قال الرجل وهو يرتعش :

ــ كيف أستطيع النزول ؟ لئن حاولت النزول فان رقبتى تندك !

قالت الفتاة :

ــ وكيف صعدت ؟

أجاب وهو يكاد يبكى :

ــ لا أعلم . لقد بدأت أؤمن بالمعجزات ! لم أكن أتصور مطلقا أنى أستطيع تسلق هذه الشجرة ومع ذلك قد تسلقتها .. وها أنذا لا أعلم كيف أنزل

ابتسمت البربرية وقالت :

ــ تجربة ظريفة . ألم تكن كذلك ؟

أجابها :

ــ بل تجربة قاسية مخجلة أيتها الفتاة الشقية ! ألم يخطر فى بالك أن تجربة كهذه ربما كانت فيها نهايتى ؟ ألم تفكرى أن قيامك بتجربة نفسية دقيقة على أعصاب متعبة كاعصابى كان يمكن أن تنتهى بوقوف حركة القلب عندى ؟ تأكدى أنى لن أجلس من الآن على كتلة مطلقا . ان نبضى غير عادى ولا أستطيع جسه لانى لو أرخيت الغصن الذى أتعلق به لوقعت على الأرض وانكسرت رقبتى

قالت الفتاة :

ــ ها قد رأيت انى استطعت أن أقوم بتجربة نفسية بدون أن ألجأ ال تقطيع الامخاخ وتخريق الاشداق ، فما رأيك فى السحر الأفريقى الذى جعلك تعمل شيئا أعترفت بأنه معجزة ؟

قال الرجل:

ــ كم أود أر تقولى شيئا آخر يجعلنى أنزل من الشجرة أيتها الساحرة السوداء !

قالت البربرية :

ـ احترس فان وراءك ثعبانا يقترب من رقبتك .

وسرعان ما قفز الرجل الى الارض فوقع على ظهره ، ولكنه وقف فجأة وقال للبربرية :

ـ اسمعى أياك أن تحسبى أنك تغلبت علىّ . لقد كنت واثقا من أنك اخترعت حكاية الثعبان لكى أنزل !

ـ ومع ذلك فقد خفت وقفزت الى الأرض .

ـ أبداً لم أخف مطلقا.

ـ خيل الىَّ وأنت تقفز من فوق الشجرة أنك ذعرت

أجاب العجوز وقد تمالك نفسه وأمن الآن وهو واقف على الأرض :

ـ هذا هو الخيال المشروط الذى قلت لك عنه ! ترى هل أستطيع أن أجعل كلبا يقفز الى أعلى الشجرة ؟

فسألته البربرية :

ـ ولماذا ؟

ـ لكى أعمل من الظاهرة حقيقة علمية .

ـ ما هذا السخف ؟ ان الكلب لا يستطيع أن يتسلق الشجرة مطلقا .

قال العالم :

ـ وأنا أيضا لم أكن أستطيع أن أتسلقها لولا خاطر التمساح الذى أوحيته إلىّ. فكيف أستطيع أن أجعل الكلب يتخيل تمساحا على الأرض ؟

قالت البربرية :

ـ تستطيع أن تجعل الكلب يتخيل التمساح بان تعرفه بعدة تماسيح أولاً .

أجاب العالم :

ـ ليس هذا أمراً هيناً ، لأن الكلاب غالية الثمن اذا لم يكن بائعها يسرقها أو إذا لم يتركها أصحابها هروباً من الضرائب والتماسيح كذلك شىء آخر يجب أن يعمل حسابه .

فاعترضته البربريه قائلة :

ـ اسمع . قل لى قبل أن تذهب . هل تعتقد فى وجود الله ؟

أجاب الرجل :

ـ الله شىء لا لزوم له وهو أيضا نظرية غير صحيحة . ان العالم هو مجموعه هائلة من الخيالات تخلقها الصدمات ولو انى أعطيتك الآن ضربة على ركبتك لارتفع كعبك عن الارض .

قالت الفتاة :

ـــ لا تفعل لأنى أضربك بهذا الصولجان .

ـــ من الضرورات العلمية أن تقام أمثال تلك الفروض الثانوية ، الحقيقية المظهر لربط أطراف الموضوع ومع ذلك فأن أثرها الخاطىء فى تصوير الخيالات المستحدثة لا يربط توافق الخواطر رباطا محكما صحيحا . لقـــد قضيت خمسا وعشرين سنة أدرس أثر هذه الخيالات .

فاعترضته البربرية قائلة :

ـــ أثرها فى ماذا ؟

أجاب :

ـــ أثرها فى لعاب الـكلب

قالت :

ـــ هل فى هذا الـكلام اى شىء من العقل ؟

أجاب :

ـــ ومن قال لك أننى عاقل ؟ أؤكد لك أننى لا أؤمن مطلقا بشىء يسمى العقل . ولا بأنه يوجد أصلا . ان مهمتى فى الحياة أن أتعلم شيئا لم يكن معروفا من قبل فأذيعه على العالم لأضيفه الى كتلة الحقائق المعروفة فى العالم .

فسألته البربرية :

ــ وهل تظن أن العـــالم يكون خيرا مما هو الآن اذا أصبح كتلة علم بلا رحمة؟ وهل فى أعصابك قوة كافية لابتكار طريقة محترمة للوصول الى ما تريد أن تعرفه ؟

فأعاد الرجل كلمة الفتاة قائلا :

ــ أعصاب !

وقد أطلقها فى دهشة كأنه لا يكاد يصدق أذنيه واستمر يقول :

ــ يبدو لى أنك أجهل مما كنت أتصور أيتها الفتاة ! ألا تعلمين أن العلماء كلهم مجموعة أعصاب من الرأس إلى القدم ؟

قالت البربرية :

ــ قل هذا للتمساح . أما لى أنا فقل لى : هل خبرت آثر تجاربك على عقول غيرك من الناس وأخلاقهم ؟ ان بحث لعاب الكلب له من الأهمية ما يساوى أن تضحى بروحك فى سبيله ، وأن تلعن الناس جميعاً إذا لم يصدقوا رأيك فيه أليس كذلك ؟

قال الرجل :

ــ ان كلماتك لا معنى لها مطلقاً أيتها الفتاة : هل تستطيعين اثبات وجود هذا الشىء الذى تسمينه روحاً هنا الآن ؟ وهى

فى إمكانك أن تظهرى هذا الشيء الذى سميته لعنة فى معمل الأبحاث ؟

قالت الفتاة .

— إننى أستطيع بضربة واحـدة من هذا الصولجان أن أحول جسما حيا تسرى فيه الروح الى جسم ميت بلا روح ويمكنك أن تشهد ذلك بنفسك وتذوقه إذا أردت ! كذلك إذا استنزل الانسان اللعنة على روحه بحمل أثيم اقترفه رأيت ذلك يبدو عليه ظاهراً

قال الرجل :

— لقد رأيت ناساً يموتون . ولـكنى لم أر واحداً تنزل بروحه اللعنة

أجابته الفتاة :

— ولـكنك رأيت واحداً يذهب إلى الكلاب . بل أنت نفسك ذهبت الى الكلاب ، أليس كذلك ؟

قال الرجل :

— مدهش . ليس هـذا من شأنك فهو خاص بى أنا سأتركك

وسار الرجل فى طريقه يفكر فى طريقة يجعل بها الكلب

يتسلق الشجرة لـكى يبرهن عملياً على أنه هو يستطيع أن أن يتسلقها. وسارت البربرية فى طريقها تبحث عن الله

وصلت البربرية فى سيرها إلى تل قليل الارتفاع نصب عليه صليب كبير كان يحرسه جندى فى زى رومانى يمسك مزراقاً حربياً طويلا ، وكانت البربرية ، رغم تعاليم مبشرتها الصغيرة وتلقينها لها أنها وجدت فى الصليب قدر ذلك العزاء الذى وجدته فى تحطيم قلبها وقلوب محبيها معها ، تكره الصليب وتكره النظر اليه ، إذ كانت تعتبره رمز الألم والتعذيب الذى أحاط بالمسيح . فلم يكد بصرها يقع عليه حتى اعرضت عنه وأشاحت بوجهها فلم تشعر إلا والحارس الرومانى يقفز اليها مصوباً مزراقه الطويل ويصيح بها فى قسوة :

— على ركبتيك أيتها السوداء أمام رمز العدالة الرومانية والقانون الرومانى والنظام الرومانى والسلام الرومانى !

انحرفت البربرية عن مرمى المزراق وهوت بصولجانها على رقبة الحارس من الخلف بضربة قوية جعلته يسقط على الأرض فلا يقوى على القيام وقالت له :

— هذا هو رمز السوداء لكل الأشياء البديعة التى ذكرتها أنت ! كيف تجده ؟


SPQR
NOT THAT YE

أجاب الحارس وهو يبكى :

— الجحيم ! أرنب صادته كلبة سوداء ! هذا مصير الدنيا بأجمعها !

وأخذ يبكى كالطفل ولم يفق من بكائه إلا وهى على بعد. فلم يستطع أن يلحق بها ويترك مايحرسه وهو جندى رومانى. ولكن آخر شىء رأته منه كان تهديداً بقبضة يده ، وآخر كلمات سمعتها منه كانت شيئاً لامحل لأعادته

وسارت تبحث عن الله

فمرت ببئر وكانت عطشى فوقفت لتشرب. وتبين لها أن رجلا كان يجلس على حافة البئر لم يكد يراها تنحنى لتغترف بيدها ماءاً حتى ناولها كأساً وقال لها :

— خذى هذا واشربى فى ذكراى

تناولت الكأس منه وشربت وقالت له :

— أشكرك أيها السيد . هاك كأسك

وأعادت اليه الكأس فأخذها ولوح بها فى الهواء. وسرعان ما اختفت كأنه سحرها فضحكت البربرية وشاركها الرجل ضحكها فقالت له :

— إنك ماهر أيها السيد . هل أنت ساحر ؟ ربما تستطيع



أن تقول أنت شيئا للبربرية . إننى أبحث عن الله فأين هو ؟

أجاب الرجل :

ـــ إنه فى داخلك وفى داخلى أيضاً

قالت :

ـــ أظن ذلك ولـكن ما هو ؟

قال :

ـــ هو بونا

لوت البربرية وجهها وفكرت فى نفسها ثم قالت :

ـــ ولم لا يكون أمنا ؟

فلوى الرجل وجهه بدوره وأجاب :

ـــ ان أمهاتنا يرين دائماً أن يكون موضعهن قبل الله . ولو أن أمى هى التى قادتنى فى الحياة لـكنت الآن غنياً بدلا من أن أكون شريداً متجولا كما أنا الآن . ولـكنى ما كنت أجد الله .

قالت البربرية :

ـــ أما أنا فقد ظل أبى يضربنى مذ كنت صغيرة حتى كبرت واستطعت أن أوقفه بصولجانى ، وبعد ذلك أراد أن يبيعنى لسيد من الجنود البيض ترك زوجته وراء البحار .

من أجل هذا أنا أرفض دائماً أن اقول أبانا الذى فى السموات وأقول « جدنا » فأنا لا أرضى أن يكون آلهى كأبى .

ابتسم الساحر لدى ذكرها الجد وكان بطبيعته طيب القلب يبتسم فى كل فرصة تعرض له وقال :

— ولكن هذا لا يمنع أن نحب بعضنا بعضاً كالأخ وأخته

أجابت البربرية :

— إن المرأة لا تحب أخاها . لأن قلبها يعرض عنه إلى رجل غريب تميل اليه كما ملت لك أنا .

قال الساحر :

— طيب. اذن فلنسقط الأعتبار العائلى فهو اعتبار استعارى لا أكثر . أننا أعضاء فى جسم الانسانية الواحد ، وهذا يعنى أن أحدنا يتمم الآخر . فلنقف عند هذا التفسير اذن

أجابت الفتاة :

— لا يمكن ياسيدى لأن الله يقول لنا أن لا دخل له بالاجسام ولا بالآباء ولا بالأمهات ولا بالأخوة ولا بالاخوات

فقال هو :

— نعم هى طريقة لقول : حبوا بعضكم بعضا ، حبوا من

يكرهكم ، باركوا من يلعنكم ، ولا تنسوا أن أسودين لا يخرجان أبيض .

فقالت :

ـ أنا لا أريد أن يحبنى الناس جميعا . وأنا لا أستطيع أن أحب كل الناس . بل أنا لا أريد . كذلك يأمرنى الله أن لا أضرب الناس بصولجانى لمجرد أنى لا أحبهم ولا أن اعطى الناس الحق فى أن يضربونى لأنهم يكرهوننى اذا وجد من يكرهنى . ومع ذلك فانه يجعلنى أكره كثيرا من الناس لانهم يستحقون السحق كالأفاعى لما يقترفونه من آثام السرقة والقتل .

قال الساحر :

ـ وددت لو أنك لا تذكرين لى أولئك الناس فأنا أكره سيرتهم التى تنغص سعادتى

فاجابت :

حقيقة أن نسيان هذه السيرة القذرة يجعل الحياة لطيفة نضرة . ولكنه لا يجعلها حقيقة ولا قويمة ، قل أيها السيد أحقا أنت تحبنى ؟

انتفض الساحر وقال :

ـــ لا تجعلى من هذا الموضوع أمراً شخصياً .

فاجابت :

ـــ لا أجعل منه أمراً شخصيا ؟ إذن ماذا يكون معناه هب انني قلت لك انني أحبك كما أردت . أفلا تشعر انى اكون قد أطلقت حريتى معك ؟

أجاب الرجل :

ـــ لا . بالتأكيد يجب ألا تفكرى فى ذلك ، فعلى الرغم من أنك سوداء وانا أبيض فنحن سواء أمام الله الذى خلقنا كذلك .

قالت البربرية :

ـــ لم يخطر هذا فى بالى مطلقا . نسيت وأنا أحدثك أننى سوداء وانك لست الا شيئا أبيض سخيفا . لا تفكر فى هذا بل فكر فىّ أنا كملكة بيضاء وفيك كملك أبيض . مالك ؟ ماذا جرى ؟ لماذا قمت ؟

تمتم الرجل الساحر قائلا : .

ـــ لا . لا شىء . ما أنا إلا أحقر مخلوق أبيض . ومع ذلك فقد كنت أتخيلنى ملكا على العالم كله بعد أن أضنتنى شرور الناس وآثامهم

قالت الفتاة :

— لقد رأيت ملوكا أشر منك فلا تخجل . فلتكن إذن الملك سليمان ولأكن أنا ملكة سبأ كما فى الكتاب المقدس ، أتيت اليك لأقول لك انى أحبك وهذا يعنى أنى أريد أن أستحوذ عليك وأحبك حب اللبوءة التى تريد أن تأكلك لتصبح جزءاً من جسمها . واذن فمن الآن يجب أن لا تفكر فيما يسرك أنت بل فيما يسرنى أنا . سأقف أنا بينك وبين نفسك وبينك وبين الله . أليس هذا ظلماً فظيعاً ؟ أو ليس الحب شيئاً مهلكاً مروعا ؟ هل يمكنك أن تتصور فردوساً انتشر فيه الحب ؟

أجاب الساحر :

— ليس فى فردوسى أنا غير الحب . وهل غير الحب شىء يعيش فى الفردوس ؟

قالت البربرية :

— المجد حيث نقصد الله وحيث يدع الانسان أفكاره فى غير جلبة ولا ضوضاء وحيث لا يتعلق أحد بأحد . لقد حدثتنى مبشرتى عن الحب فقالت انها هربت من محبيها جميعاً لتقوم بواجبها نحو الله . وأنا أقول بدورى أن البيض يحولون عيونهم عنى خوفا من أن يقعوا فى حبى . وهناك

جماعات من الناس رجالا ونساءاً كرسوا حياتهم للقيام بواجب الله وخدمته ودعوا أنفسهم أخوة وأخوات ومع ذلك لا يكلم بعضهم بعضاً

قال الساحر :

ـــ هذا أسوأ لهم

قالت البربرية :

ـــ بل جنون مطبق . فنحن مضطرون أن نعيش بين الناس ولهذا يجب أن نخلق السعادة من الاختلاط بهم . ولكن أليس هذا يعنى أن ارواحنا تحتاج الى الوحدة بقدر ما تحتاج أجسامنا الى الحب ؟ اننا لا نستطيع أن نحيا بغير تعاون أجسادنا وكذلك لا نستطيع الحياة بغير تعاون عقولنا . لكن أرواحنا هى التى يجب أن تنفرد فى علاقتها بالله . فاذا جاء اليك أحد يغمرك بالحب ويريد أن يسلبك الروح فوق الجسم والعقل فقل له : ابتعد فأنا لست ملكا لأحد لأنى ملك نفسى ، وإذن فقولك « نحب بعضنا بعضاً » هو فى نظرى أكثر سخرية وأنا أبحث عن الله مما هو فى نظر جندى تحاول أن تمنعه عن القتال وهو يقاتل الجريمة والاستعباد ، أو فى نظر صياد تريد أن توقفه عن قتل فريسته وهو يطعم

بها أطفاله الجياع

فقال الرجل :

ـــ إذن ماذا تريدين أن أقول. أأقول : اقتلوا بعضكم بعضاً؟

أجابت الفتاة :

ـــ وهذه أيضاً تنقلب رأساً على عقب . وكلا القولين خطأ لا يمكن تطبيقه على كل حالة . ما أشبه حكمك بالحبوب التى يبيعها لنا التجار المتجولون هنا للتداوى بها . قد تنفع مرة فى كل عشرين مرة وفى التسعة عشرة مرة الأخرى قد تضر . ومع ذلك فأنا لا أبحث عن الحكم بل أنا أبحث عن الله

قال الرجل :

ـــ اذن فأتمى بحثك . وليكن معك الله .

واختفى فجأة فقالت الفتاه :

ـــ ربما كانت هذه اللعبة أحسن مافيك . ومع ذلك فأنا آسفة لفقدك لأنك كنت رجلا جديراً بالحب ، وتفهم ما أريد وتعنى ماتقول .

وسارت البربرية تبحث عن الله ، فلم يعد سيرها ميلا واحداً حتى التقت بصياد من صيادى السمك يحمل كنيسة

فوق أكتافه ، يكاد ينوء تحتهـا من الثقل ، فأشفقت عليه وأقبلت لمساعدته وهى تقول :

ـــ احذر لئلا تقع على ظهرك فتقضمه .

أجاب الرجل مبتهجاً :

ـــ لاعليك منها فأنا الصخر الذى بنيت عليه هذه الـكنيسة.

قالت الفتـاة وهى تتـوقع بين لحظة وأخرى أن ترى الـكنيسة تندك فوق رأسه :

ـــ ولـكنك لست صخراً وهى ثقيلة عليك !

فابتسم الرجل مرة اخرى وأجاب :

ـــ لا خوف علىّ منها فهى من ورق .

وأخذ الرجل يرقص والـكنيسة فوق رأسـه فجعلت أجراسها تدق دقا بهيجاً ، وسار هو فى طريقه ،غير أن آخرين غيره كانوا يلبسون ثياباً بيضـاء وسوداء ويحملون كنائس من ورق تتابعوا بعده وكان كل منهم يصيح قائلا :

ـــ لا تصدقى الصياد . ولا تصدقى غيرى . فـكنيستى هى الـكنيسة الحقة !!

وتضاربوا أمامها وأخذوا يقذفون بعضهم بعضاً بالحجارة، فخشيت أن يصيبها من قذفهم شىء وانحرفت عن طريقهم



وأوغلت فى الغابة

كمنت البربرية فى الغابة وظلت حتى انتهى القتال بينهم فعادت إلى الطريق بعد أن خلا منهم ، ووجدت أمامها رجلا يهودياً عجوزاً ممن يهيمون على وجوههم فلم يكد يراها حتى ابتدرها بسؤاله :

— هل جاء ؟

فسألته بدورها :

— ومن هو ؟

أجاب اليهودى :

— الذى وعد أن يأتى . الذى قال لى أن أنتظره حتى يأتى . لقد انتظرت أكثر مما يجب . واذا تأخر أكثر من ذلك فسيكون مجيئه بعد فوات الوقت لأن الناس يزدادون قتلا بعضهم لبعض كل يوم .

قالت البربرية :

— ولن يستطيع أحد أن يوقف هذا

فأجاب اليهودى :

— ولكنه سيأتى بالمجد وسيكون مجلسه عن يمين الله وقد قال انه سيضع كل شىء فى موضع الحق

قالت الفتاة :

ـ لو لبثت تنتظر ما لبثت ليأتى من يضع كل شيء فى موضع الحق فانك ستنتظر الى الأبد

لم يكد اليهودى يسمع هذا حتى صاح صيحة اليأس وانطلق يعدو مسرعا وفرحت البربرية بهربه لأنها سئمت هؤلاء الكهول المخرفين واستأنفت سيرها

وظلت تسير حتى وصلت إلى شاطىء ظليل فوجدت نحو خمسين من أبناء قومها السود كان يبدو عليهم أنهم يشتغلون حمالين فى خدمة جماعة من البيض كانوا يجلسون على مقربة منهم رجالا ونساءاً والجميع حتى النساء يلبسون سراويل قصيرة وقبعات شمسية كبيرة مما يدل على أن الجميع مستكشفون ، وقد فرغوا من أكلهم فاضطجع بعضهم يستريح والبعض يكتب

سألت البربرية كبير الحمالين السود قائلة :

ـ أية بعثة هذه ؟

أجاب الرجل :

ـ يدعونها بعثة المستكشفين

سألته :

ـ وهل هم من البيض الطيبين أم الخبثاء ؟

أجاب الرجل :

ــ هم مجانين . يقضون جزءاً كبيراً جداً من وقتهم فى الجدل على أشياء تافهة ويسألون أسئلة لامعنى لها لمجرد السؤال فقط

وسمعت البربرية احدى السيدات البيض تصيح بها قائلة :

ــ أنت أيتها الفتاة !! اذهبي فى طريقك لئلا تفسدى الرجال

فأجابتها البربرية :

ــ تظنين انى أفسدهم أكثر منك !

فصاحت السيدة :

ــ فتاة سخيفة . اننى فى الخمسين الآن فلا خوف منى لأنى فقدت أنوثتى وقد ألفونى جميعاً . هياهيا اذهبي فى طريقك

أجابت البربرية فى ازدراء :

ــ لاتخافى فهم ليسوا كرجالكم البيض . أخبرينى ماسبب تسميتكم بعثتكم ببعثة المستكشفين ؟ ما الذى تستكشفونه ؟ هل تبحثون عن الله ؟

فانفجرت السيدة ضحكا أفاق منه الغافون من رجال البعثة وسألوا عن سبب هذا الضحك فأعادت عليهم ما قالته الفتاة ، وانبرى لها أحد الرجال قائلا :

— لقدمضت مئات السنين أيتها الفتاةعلى اكتشاف مثل هذا الأمر فى الأمم المتمدينة

وقال آخر :

— بل أكاد أجزم أنه قبل القرن الخامس عشر لأن شكسبير ملحد

وقال ثالث :

— شكسبير ليس كل الناس . فالنشيد القومى وضع فى القرن الثامن عشر وتجدنا فيه نطلب من الله أن يقوم بنصيبه فى أعمالنا السياسية

قال الثانى :

— آه . هما آلهان مختلفان . فاما آله القرون الوسطى فقد كانوا ينظرون اليه كآمر يستطيع أن يدعك أنوفهم فى حجر الطاحون فلما طغت طبقة الأعيان وحكمت وأصبح لها السلطان ظهر آله جديد غير الآله الأول ، هؤلاء الأعيان يمزجونه بسياستهم ، ويستترون به فى حيلهم الفاسدة

قال الأول :

— نعم وآله ثالث للأعيان المدللين مهمته انه كلما امتلأ لوحهم بالدنس طول الاسبوع جاء ليمسحه يوم الأحد

قال الثالث :

ــ وكلاهما لا يزال يعيش قوياً واذا شككت في ذلك فحاولى أن تضيق شطراً جديداً محترماً إلى النشيد القومى أو حاولى أن تمحى فكرة التكفير ثم انظرى ماذا يجرى

أجابت البربرية :

ــ أصبح أمامى الآن ستة آلهة ليس فيهم من أبحث عنه

سألها الأول :

ــ وهل تبحثين عن الله ؟ ألست مكتفية بالمامبو شامبو أو بما تسمى به آله قبيلتك ؟

قالت البربرية تخاطب الرجل الأول :

ــ ربما كان كذلك . لكن يجب أن تكون أكثر حيطة فقد علمتنا مبشراتكم أن نؤمن بآلهتكم إيماناً مطلقاً ، فاذا وجدناكم لا تؤمنون بهم ووجدناكم أعداءهم فاننا لا نتردد فى قتلكم ونحن كثرة ونستطيع أن نرمى بالرصاص كما ترمون تماماً

قال الرجل الثانى :

ــ هذا الكلام فيه شيء يدعو إلى التفكير فقد أصبحت أعتقد اننا لسنا محقين فى تعليم هؤلاء مالا نعتقد فيه نحن لأنهم يتعلقون به إلى حد الموت . لماذا لا نقول لهم الحقيقة مجردة ؟



لماذا لا نعلمهم أن العالم وجد من مجموعة من المنتجات الطبيعية وأن نظرية وجود الله هي نظرية لا حقيقة لها ؟

قال الرجل الأول :

ـــ لو فعلنا لعدنا بهم إلى نظرية بقاء الأصلح ، وأعتقد انه ليس من المؤكد تماماً اننا نحن أصلح منهم للبقاء فى هذا العالم واليك البرهان فهذه فتاة سوداء ولكنها بديعة التكوين . ولا تنس اننا اضطررنا لطرد خدمنا البيض واستبدلنا بهم هؤلاء السود لأنهم أقوى وأنظف وأذكى من رجالنا

وقالت احدى السيدات تؤيد حديثه :

ـــ وسلوكهم أحسن كثيراً من سلوك البيض .

فأجاب الأول :

ـــ تماماً ! ومن أجل هذا أفضل أن نعلمهم أن يعبدوا آلهاً خاصاً حتى تكون أمامنا فرصة لتذكيرهم به إذا ما أقاموا حرباً عواناً على الالحاد الأوربى .

وقالت سيدة تضع فوق عينيها نظارات :

ـــ انك لا تستطيع أن تعرف هؤلاء الناس بحقيقة العالم فالعالم كما أصبحنا نعرفه نحن الآن مبنى على الرياضة . وتعال اسأل هذه الفتاة إذا كانت تستطيع أن تقسم كما على

جذر ناقص (س) وأنا أؤكد لك انها لا تكاد تفهم ما تسألها فيه والقسمة على جذر ناقص (س) كما تعلم هي مفتاح نظرية وجود العالم

قال الرجل الثاني :

— مفتاح نظرية العالم القسمة على جذر ناقص (س) ! هذا سخف ! ان مفتاح نظرية العالم هو في الهيكل الطبيعي . . .

فقاطعه أحد رجال البعثة قائلا :

— ما فائدة كل هذا الكلام ؟ ان الحقيقة الواقعة التي لا ينكرها أحد منا هي أن الشمس تفقد كل يوم جزءاً من حرارتها ، وأننا سوف نموت من البرد عند ما تنتهي الحرارة تماماً . وإذن لا معنى لأية نظرية أخرى أمام هذه الحقيقة الواقعة

وقال شاب يفيض حياة وصحة :

— هون عليك ياصديقي كروكر فأنا بصفتي كبير أطباء البعثة أرى نفسي مضطراً أن أبلغك بما لي من السلطة الطبية عليك أنه إذا لم تطرح عنك تلك الحقيقة المؤكدة في نظرية الدورة الشمسية فان لديك من الأسباب القوية ما يجعلك تؤمن من ناحية أخرى بنظرية ازدياد الحرارة الشمسية إلى الحد الذي تصل فيه حتما إلى احراقنا أحياءاً

فأجاب مستر كروكر :

— وأية تعزية فى هذا ياصديق ؟ الخاتمة الفناء على كل حال

وقال الرجل الأول :

— ليس من الضرورى أن يكون الفناء بالذات

فأجاب مستر كروكر :

— بل هو بالذات . فالثابت الذى لاشك فيه أن عناصر الحرارة التى تحفظ الحياة معروفة ولا سبيل للمناقشة فيها . فأنت لا تستطيع أن تعيش فى درجة التجمد ولا فى درجة الأحتراق.. ولا يهم بعد ذلك أن يصل العالم إلى أيتهما مادمت لا تستطيع الحياة فى إحداهما

فقال الرجل الأول :

— هوه ! ان أجسادنا التى هى الشىء الوحيد الذى تؤثر فيه درجات الحرارة المختلفة التى تتكلمون عنها تفنى وحدها وهى محافظ عليها فى غرف مقفلة يتخللها الهواء المجدد والحرارة الملائمة . لكن الشىء الوحيد الذى يعتبر فارقاً بين الجسم الحى والجسم الميت ، هو شىء لم يثبت بعد أن له علاقة ما بالحرارة والبرودة . انه ليس اللحم ولا الدم ولا العظام ولو أن له تلك الظاهرة العجيبة فى بناء الأجسام وتكوينها بغير أن

تكون فيه مادة . ولو أردت أن تتصور هذا الشيء فإن أقرب
الصور إلى الذهن تتمثل فى تشبيهه بموجة كهربائية مغناطيسية
لدوامها معدل خاص للذبذبة فى الأثير الجوى — إذا كان فى
فى الجو أثير — من يعرف ؟ يستطيع أن يثبت على أبرد
الكواكب المتحجرة كما يثبت على حمأة الشمس الملتهبة

قالت إحدى السيدات :

— ومن أين تستطيع أن تعرف أن الشمس حارة ؟

أجاب مستر كروكر ضجراً :

— تسألين هذا السؤال وأنت فى وسط أفريقيا؟ أعرف
انها حارة لأنى أحس حرارتها . ألا يكفى هذا ؟

أجابت :

— وإذا ذقت الفلفل وجدته حاراً أيضاً فهل تستطيع
أن تشعل ثقاباً من الفلفل ؟

وسألت سيدة أخرى :

— وكذلك إذا نظرت فى نوتة البيانو تجد علامة فوق
وعلامة تحت ، بينما جميع العلامات فى مستوى واحد

وقالت سيدة ثالثة :

— ويخيل اليك أن صياح الببغاء صراخ بينما هو لا يزيد

عن هدير القنبرة .

قال رجل تبدو عليه شخصية جذابة :

ـــ أرى انكم يجب ألا تنزلوا للاجابة عن هذه الفقاقيع الفارغة . التي لا تبعد كثيراً عن مستوى لعبة الورقات الثلاث. إنني كجراح أعلم حقيقة مشاهدة . وهى أن أقطار الأوعية التى تمد مخ الأنثى بالدم أطول منها عند الرجل ، ولذلك فان كمية الدم الزائد المتدفق إلى مخ الأنثى تسبب نشاطاً زائداً وتشويشاً فى تفكير المرأة عن الرجل يجعلها تحس حرارة زائدة فى الفلفل وتحس علواً فى الأنغام السوبرانو الهادئة ، وصراخا فى صياح الببغا. لا يحسه الرجل .

قال الرجل الأول :

ـــ أسلوبك التعبيرى بديع يادكتور، ولو أنه يتعارض مع نظريتى فى أنه سواء كانت حرارة الفلفل هى حرارة الشمس أم حرارة اللهب ، وسواء أكانت برودة القمر هى برودة الثلج أم برودة التأنيب على الفقر، فانها كلها تعيش بيننا ويجب أن نغمر أنفسنا بها مادمنا نعيش على الأرض .

وقال مستر كروكر :

ـــ إن أبرد أجزاء الأرض لا يسكنها أحد

وقال الرجل الأول :

— ولكن أحر أجزاء الأرض مسكونة . ومحتمل جدا أن تعمر أبرد الأصقاع اذا توفرت فيها أسباب الراحة التى تتوفر فى الاجواء المعتدلة . ومع ذلك فان ملوك البنجون (طائر قطبي يغطس فى الماء بمهارة) تعيش فى القطب فلماذا لا تعيش ملوك السلامندر (زاحف يستطيع أن يمر وسط النار) فى الشمس ؟ لقد كانت جداتنا اللائى كن يؤمن بالجحيم الملتهب يعتقدن أن الروح — وهى التسمية التى اخترنها لذلك الشيء الذى يفارق الجسد عند الموت والذى يفرق بين الحياة والموت — كن يعتقدن أن هذه الروح تستطيع ان تعيش فى النار الى الأبد . وقد كن فى هذا أقرب الى النظرية العلمية من صديقى كروكر

فاجاب كروكر :

— الانسان الذى يؤمن بالنار يستطيع أن يؤمن باى شيء آخر حتى بأمكان توريث العادات المكتسبة .

وقال رجل آخر كان هو المختص بالعلوم الطبيعية للبعثة :

— كنت أظنك يا كروكر تؤمن بنظرية التطور

فأجاب كروكر على الفور :

ـــ أنا مؤمن بها لعلك حسبت العكس ؟

قال الطبيعي ·

ـــ لو كنت تؤمن بالتطور لوجب عليك أن تعتقد ان العادات كلها تأتى من كلا الطريقين الاكتساب والوراثة . ولكن مازالت جنة عدن تجرى فى دمكم للآن . والطريقة التي تأخذون بها كل جديد بغير أن تفكروا مطلقا فى خلع القديم وقذفه بعيدا ، تجعل منكم أخطر الأخطار العامة . أنكم جميعا محافظون علي أفكاركم القديمة الموروثة ولكنكم (تطلونها) فقط طلاءاً علميا سطحياً . من أجل هذا كنتم أغبى المحافظين والمتكهنين بالسياسة وحتى بالنتائج العلمية نفسها . فأذا أريد بأحداها أن يتقدم خطوة فى سبيل التحرر من قدمه قتم قومة واحدة وبرأى واحد وصحتم : فليوقف هذا وليمنع هذا وليشنق هذا !

فقالت السيدة الأولى مندهشة :

ـــ برأى واحد . وهل حدث أن اتفقوا مرة واحدة على شيء واحد ؟

وقالت سيدة أخرى ذات لهجة ساخرة :

ـــ انهم جميعا ينظرون الى ناحية واحدة الآن !

فسألتها السيدة الأولى :

ـــ وأية ناحية هذه .. ؟

فاجابت السيدة الساخرة وهي تشير إلى البربرية :

ـــ الى هذه الناحية ؟

نظرت السيدة الأولى الى البربرية وقالت لها :

ـــ وأنت لا تزالين هنا ؟ لقد أمرتك أن تذهبي . هيا . إمش من هنا

لم تجب البربريه بكلمة واحدة . وأظهرت ازدراءها للسيدة البيضاء الاولى وهي تلعب بصولجانها وتقلبه بين أصابعها ثم قالت متثاقلة تسأل السيدة الرياضية :

ـــ وأين يزرع ؟

سألتها السيدة الرياضية :

ـــ ما هو الذى أين يزرع ؟

فأجابت البربرية :

ـــ الجذر الذى سميته ناقص (س)

قالت السيدة :

ـــ أنه يزرع فى العقل ، هو عدد . هل تعرفين الأعداد ؟

فقالت البربرية وهي تستعين بأصابعها فى العد :

ـــ تعنين واحد اثنين ثلاثة اربعة خمسة . . . ؟

أجابت السيدة :

ـــ تماما . هو ما أريد . والآن ـــ عدّى من واحد نازلة

ـــ واحد ـــ إلا واحد . إلا اثنين . الا ثلاثة . إلا اربعة .

صفق الجميع لسماع البربرية وقال أحدهم :

ـــ بديع ! نيوتن !

وقال آخر :

ـــ بل لايبنتز .

وقال رابع :

ـــ اينشتين !

ثم صاح الجميع معاً :

ـــ بديع . بديع !

وقالت سيدة أخرى كانت هي المختصة في دراسة الشعوب البعثة :

ـــ ألم أقل لكم ؟ ألم أؤكد لكم أن المدنية الآتية ستكون مدنية سوداء ؟ لقد فرغ الأنسان الأبيض وهو إذ يحس هذا أخذ يبيد نفسه بنفسه بأسرع ما يمكن .

دهشت البربرية لهذا الأعجاب الغريب وسألت :

ـــ أيدهشكم هذا الشيء الصغير التافه ؟ متى تكبرون أيها

البيض وتصبحون عقلاء فى رزانتنا نحن السود ؟ لقد كنت
أظن الخرز شيئا عجيبا عندما وقعت عليه عيناى لأول مرة
ولكنى ألفته بعد ذلك . وأنتم تصيحون وتهللون وتعجبون كلما
قال أحدكم شيئاً سخيفاً. ان أبدع شيء عندكم هى بنادقكم . وأظن
أنه كان من السهل أن يجد الانسان الله قبـــل أن يوجد
البنادق . ولكنكم لا تعنون بالله بل لا تعنون بشيء أكثر
مما تعنون بصناعة البنادق . وتستخدمون بنادقكم فى أسرنا
نحن ثم يدفعكم كسلكم الى أن تعلمونا الرماية وتضعون البنادق
فى أيدينا وتأمرونا أن نصيد لكم . وسوف تعلمونا أيضاً كيف
نصنع البنادق لأنكم ستكسلون عن عملها بأنفسكم . لقد اكتشفتم
صناعة الشراب الذى يجعل الانسان ينسى الله ، وينسى ضميره
وعقله ويخيل له الجريمة لهواً وعبثاً . وأنتم تبيعون لنا هذا
الشراب وتعلمونا صناعته . وكلما أمعنتم فى عملكم فسرقتم من
أرضنا وحرمتمونا القوت ، كلما زاد بغضنا لكم حتى أصبحنا نراكم
كالأفاعى . وماذا تكون نهاية ذلك ؟ سوف يقتل بعضكم
بعضاً بسرعة هائلة حتى يصبح العدد الباقى منكم قليـــلا
لا يستطيع أن يقاوم رجالنا الأشداء حين يشربون شرابكم
السحرى ويقتلونكم بأسلحتكم . ثم ينثنى رجالنا الى أنفسهم

فيقتل بعضهم بعضا الا أن يمنعهم الله . هذا ماعرفته أنا
حيث كان يجب أن أجد الله . هل يريد أحدكم أن يساعدنى فى
بحثى ؟ هل يهتم أحدكم بهذا البحث ؟

قال رجل غليظ الجسم هائل الحجم :

ـ لقد أنقذتكم بنادقنا من الأسود الفاتكة والأفيال
المهلكة . أليس كذلك ؟

أجابت البربرية :

ـ نعم لتضعنا فى أيدى حاملى الاسواط الملهبة ، وتحت
أقدام الأسياد الجبابرة . ان الأسد والفيل يشاطراننا هذه
الأرض سكناً . ولو أكلا أجسادنا فأنهما لا يمسان أرواحنا
واذا شبعا لا يطلبان مزيدا . أما أنتم فلاحد لأشباع مطامعكم .
انكم تعملون فينا بالموت أجيالا وأجيالا حتى ليبلغ عدد ما
يفتك به الواحدمنكم منا مائة، ومع ذلك مازلتم ترهقوننا بالعمل
الشاق وما زلتم تطلبون ارهاقنا وتقللون من طعامنا وثيابنا .
انكم لا تعرفون الكفاية لأنفسكم . ولكنكم تعرفون الكفاف
لنا . انكم تتضجرون لأن أيدينا خالية من المال الذى نشترى
به بضائعكم التى تعملونها ، وعلاجكم الوحيد هو حرماننا من
المال .ذلك راجع الى أنكم تخدمون آلهةمزيفة .أنتم متوحشون.

انتم لا تعرفون كيف تعيشون . ولا تتركون غيركم يعيش . انني سوف أفنيكم عندما أجد الله وأحصل منه على قوة العقل . وسأعلم قومي كيف لا يفنون أنفسهم

فصاحت السيدة الأولى :

ــ انها أهاجت الرجال . انظروا لقد توقعت هذا . انهم يسمعون كلامها السخيف وأبصارهم زائغة . لقد أصبحوا في خطر . سأضع رصاصة في قلب هذه الفتاة ان لم يتقدم أحدكم أيها الرجال ويفعل .

وفعــــلا أخرجت السيدة مسدسها ، فذعرت البربرية ولـكنها قفزت إلى السيدة قبـل أن تصوبه اليها وضربتها بصولجانها ضربة قوية أوقعتها على الارض وهربت البربرية وسط ضجيج وتهليل الحمالين السود الذين سروا برؤيه فتاتهم السوداء تنتصر أخيرا

وقال السيد الأول :

ــ لقد أعادت الينا بعض نشاطنا بهزلها هذه الفتــاة . تقدم يادكتور وافحص مس فتسجونس المسكينة بعد الضربة التي نالتها .

وقال الطبيعي :

ـ كل غلطتنا أننا لم نقدم لها شيئاً من طعامنا

انطلقت البربرية فى الغابة مسرعة وظلت تجرى وتجرى كى تأمن تتبعها لانهـا أدركت مبلغ ما عملت بصولجانها وكانت تعلم أن لاشىء ينقذ رقبتها من قصاص اعتدائها على أحد البيض ولو أن فرسان البوليس الذين كانوا يجوبون هذه النقطة لم يبد منهم أحد فى طريقها . وإذ أمنت على نفسها وقفت وأخذت تنظر هنا وهناك لتقرر فى أى طريق تسير ، وكل الطرق تستوى عندها ، ولما كانت تعلم أن البعثة سائرة فى طريقها قررت أن تعود من نفس الطريق . وفعلا عادت وظلت تسير حتى أقبل الليل فاذا بها على حافة البئر حيث لقيت الساحر أول مرة .

وجدت الفتاة أمامها خيمة مقامة فوق رفوف نصبت عليها تماثيل من خشب ومن مصيص ومن عاج معروضة للبيع وبجانبها صليب كبير من الخشب كان يرقد عليه الساحر ملتف الساقين متراخى الذراعين وقد جلس أمامه مثـــال ، هو صاحب الخيمة وكان يقد له تمثالا من الخشب فى كثير من السرعة والمهارة .

وكان يرقب هذا العمل عن قرب سيد أعرابى أنيق ، يلبس



عمامة على رأسه ، ومنطق بسيف قصير وقد جلس على حافة البئر وكان يعبث فى لحيته بأصابعه .

وجه السيد الأعرابى حديثه للساحر فقال :

ـــ ما غرضك من صنع هذا أيها الصديق ؟ ألا تعلم أن مثل هذا العمل مخالف للتعاليم الثانية التى أمر الله موسى بها ؟ ألآن يحق لى أن أضربك بسيفى ضربة فيها القضاء عليك ولكنى لا أستطيع . لقد قاسيت وانغمست فى الخطيئة طول حياتى تحت تأثير النفس المعوجة حتى أصبحت غير قادر على ذبح حيوان حتى ولا إنسان ذى دم بارد . قل لم تعمل هذا ؟

فأجاب الساحر :

ـــ وأى شىء آخر أستطيع أن أعمله إذا لم أعمل ذلك لآمن شر الجوع ؟ ان العالم بأجمعه قد نبذنى عنه فلم أعد أرى أمامى وسيلة للكسب غير تلك المهنة الشاقة التى تضطرنى أن ألقى بنفسى كالمصلوب طول اليوم أمام هذا الرجل المثال ليعطينى أجراً لا يزيد عن الدرهمين ونصف . وهو بدوره يعيش من بيع هذه التماثيل التى تمثلنى فى الأوضاع الشاذة كهذا الوضع الذى أمثل فيه دور (الميت الخاطئ) الذى يشغف الناس باستطلاع

أخبار مغامراته . وكلما فرغ من صنع عدة تماثيل ، وجمعت
أنا بضع دراهم أخذت اجازة وتجولت هنا وهناك أعظ
الناس وأقدم لهم الحقائق الصحيحة التى لو اتبعوها لعاشوا
أسعد وأحسن مما هم فيه ، ولكنهم يرفضون أن يتبعوا
نصحى ما لم أقم بينهم ببعض ألعاب السحرة فاذا عملت شيئا
منها ترامت على النقود من كل صوب وقالوا انني رجل عجيب
مدهش لم يأت الزمان بمثله ، ثم يعودون سيرتهم الحمقى الدنيئة
القاسية كما كانوا . وهذا يجعلني أشعر بأن الله ينبذني أحيانا

قال الأعرابي :

ـــ أنا لا أحب أن يعاملني الناس كذلك ، أنا أيضا
على رسالة يجب أن أؤديها ولو تركت قومى لأنفسهم
لخروا أمام هذه الأصنام جميعها وعبدوها . واذا لم يجدوا تلك
الأصنام عبدوا الحجارة . ان رسالتي هي افهام الناس أن
لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، الذى لا إله غيره .
الذى لم يجرؤ أى مخلوق بعد على أن يجعل شبيها له فى تمثال ..
ولو رأيت أحدا من الناس يحاول أن يرتكب هذا الجرم ،
لنسيت رحمة الله وأقبلت عليه بسيفي وذبحته بيدى ولكن
من هو الذى يستطيع أن يدرك عظمة الله فى صورة مجسمة ؟

حتى ولا أبدع تمثال ولا أجمل جواد يمكن أن يعطى صورة مصغرة لعظمة الله وجماله . كلما قلت لهم ذلك طلبوا الى أن أبدى لهم سحرى فأحاول أن أفهمهم أنى انسان مثلهم وأن الله نفسه لا يرضى عن تنفيذ قوانينه من طريق عمل السحر وأمثاله من الأعمال غير المشروعة ولكنهم ينصرفون عنى وهم يطالبون بأتيان المعجزات . أما أنا فأعتقد انهم يؤمنون إيماناً حقاً بما أقول وإلا لكنت سلطت عليهم من آمنوا بقولى ففتكوا بهم . هكذا يجب أن تفعل أنت أيضاً أيها الصديق .

أجاب الساحر :

— ولكن رسالتى أنا تحرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً فلا بد أن يكون الانسان متناسقاً فى هذا العالم فى جميع تصرفاته .

قال الاعرابى :

— هذا صحيح تماماً إذا كانت تصرفاتهم فى الحدود الشخصية . إلا أنه يجب أن لا يبقى الأشخاص غير الصالحين للبقاء ، يجب أن نعمل كما نعمل فى الحدائق تماماً نقلبها كلما روبناها

فسأله الساحر :

— لكن ترى من يكون الحكم فى صلاحية البقاء وعدمه ؟

خذ حالتي مثلا لقد حكمت علىّ السلطات العليا والحكام المالكون وكبار الكهنة بعدم الصلاحية للحياة وربما كانوا على حق فى حكمهم .

أجاب الاعرابى :

— هذا ما حدث معى تماماً . لقد هربت واختفيت مدة طويلة حتى أقنعت نفراً من الشبان الرياضيين بأن كبارهم مخطئون فى فهمى إذ كان الحذاء فى غير موضعه . وأخيراً عدت مع الشبان فقبلنا الحديقة

قال الساحر :

— أنا معجب بشجاعتك وتصرفاتك العملية ، لكنى لا أستطيع عملها لأنى نشأت نشأة مختلفة

قال الاعرابى :

— أنصحك أن لا تعجب بهذه الصفات . هى من خلق كل زعيم من زعماء الصحراء فهى أينما سرت تلبس عقلى الذى يسيطر عليه إلهام مقدس يجعلنى أعرف قدر نفسى . ألم تضع فى حياتك كتاباً ؟

أجاب الساحر فى حزن عميق :

— لا . وددت لو كنت أستطيع . اذن لجمعت من المال

ما يكفيني مؤونة الاستلقاء على هذا الصليب الموجع ، مع نشر رسالتي على الناس ليقرأها العالم جميعا . ولكني لست مؤلفاً ، حتى انى نظمت مرة صلاة قصيرة جمعت فيها كل ما أردت أن أقوله ، ومع ذلك فلم تنجح ، إن الله يلهمني أن أتكلم ولكنه لا يريدني أن أكتب

قال الاعرابي :

ــ ولكن الكتابة نافعة . فقد ألهمت أن أكتب عدة فصول من كلمة الله تقدس اسمه ، إلا أنه يبدو لى أن فى هذا العالم أناساً لا ينتظر أن يتعب الله نفسه معهم . كلمته لا تعنى شيئاً عندهم ولذلك فأنا لا أعتمد مطلقاً على الالهام عند ما أحادثهم بل أعتمد على خيالى وتربصى بهم . فأنا أصور لهم أشنع الفظائع عن اليوم الآخر وعن الجحيم الذى سيخلد فيه فاعلو الشر فى هذه الدنيا . ثم أنقلب إلى الجنة فأصور لهم صور النعيم الأبدى الذى سينعم فيه المطيعون لأوامر الله . وأية جنة ؟ جنة الحدائق والعطور والحور الكواعب

سأله الساحر :

ــ وكيف تعرف أوامر الله ؟

أجاب الأعرابى :

— هم لا يعرفونها وإذن فلا بأس من أن تقوم أوامرى أنا مقامها . وهم يفهمون أوامرى التى هى فى الواقع أوامر الله تسلمتها ووضعتها فى صيغة تلائم العاطفة والحاجة الانسانية وهذا أحسن ما يمكن أن أعمله من أجلهم ، وبغيره لم أكن أستطيع أن أسوسهم إذ كانوا يلجأون إلى أول زعيم يلقونه فيعدهم بنصيب أكبر فى الغنيمة الدنيوية . ولكن الآن مَن مِن الزعماء يستطيع أن يكتب لهم أو يعدهم نعيما أبدياً بعد الموت يملك عقولهم كما ملكتها انا بتصورات يحوطها جلال الالهام الحق ؟

قال الساحر فى كثير من التقدير :

— توفرت لك كل صفات النجاح !

قال الاعرابى :

— أنا الآن الخادم المتواضع لله الذى يسوق الناس اليه لأنه لا يرى فى غيره قوة ولا جلالا . ويحتمى فيه من الشيطان وعشيرة الشيطان

التفت المثال الى الأعرابى وقد كان يصغى اليه وهو يعمل فى تمثاله وسأله :

— ما هى قيمة كل هذا الجلال وكل هذه القوة إذا لم

يكن فيها معنى الجمال واذا لم تتناولهـا مهارة التجسيم الذى لا يعدو عليه الوقت ويبيده ؟ ليس لى أقل نفع فى الله الذى تقول انه نهى عن صنع التماثيل .

أجاب الاعرابى : أعلم يا كلب الكفار أن للتماثيل قوة تجعل الناس يخرون على وجوههم سجداً يعبدونهـا حتى وهي تمـاثيل البهائم .

قال الساحر معترضاً :

ـــ أو تماثيل النجارين

فاستمر الاعرابى يقول ولم يثر اهتمامه اعتراض الساحر :

ـــ حينما كنت أرعى الأبل كنت أحمل فى أعطافى تماثيل أناسى يجلسون على عروش ، ولهم رؤوس صقور فوق أكتافهم ويمسكون فى أيديهم سياطاً .. واعلم أيضاً أن المسيحيين الذين بدأوا عبادتهم لله فى صورة انسـان يعبدونه الآن فى صورة الحمل . وهذا هو القصاص الذى قدره الله لخطيئة تقليد صنع يديه ، ولكن إياك أن تجرأ على هذا القياس وأن تنكر على الله معـانى جماله . حتى تمثالك هذا الذى يشاركك خطيئتك ، سوف يذكرك دائماً بأن أزاهير الله خير وأبهى من ثياب سلمان وهو فى أوجه . لقد جعل الله من سماواته

صوره ، ومن أبنائه تماثيله . ولن يحرم عالمنا الدنيوى من مناظرهما أبداً . هو يسمح لك أن تصنع الثياب الجميلة ، والسروج الفاخرة والسجاجيد التى تسجد عليها أمامه، والنوافذ كأنها أحواض الزهور الملونة المتناثرة كالأحجار الكريمة ، ومع ذلك ستجد نفسك دائماً متطفلا على العمل الذى اختص به نفسه وأنت تعمل هذه التماثيل . لن تتاح لقومى فرصة ارتكاب هذه الخطيئة مطلقاً !

فقال المثال :

ـــ هوه ! ان آلهك فظيع مشوه وهو يعلم هذا . أنا عندى فى خيمتى هذه فى أحد الأركان المكشوفة بعض آلهة اغريقية يبلغ جمالها حداً أؤكد لك ان آلهك نفسه إذا رآها ينفجر من الغيظ والحسد عند ما يقارنها بمحاولاته الفاشلة التى يعملها . لقد صنع آلهك يدى هاتين لأن يديه لا تحسنان غير التشويه . هذا ان كانت له يدان على الاطلاق . ان الآله الفنان يكون هو نفسه فناناً . لا يكتفى بما تصنع يداه هو ولكنه دائماً يتمم عمله إلى آخر ما تستطيع قواه ، ويعلم أن وراء وجوب وقوفه عند هذا الحد الذى تستطيعه قواه، حداً آخر من الكمال لايكون للصورة بغيره أى معنى . انآلهك يستطيع أن يصنع

امرأة ، ولكن هل يستطيع أن يخلق آلهة الحب ؟ لا يستطيع ذلك إلا فنان ماهر : انظر !

ثم قام يجرى إلى خيمته وعاد ومعه تمثال من المرمر لفينوس (آلهة الحب) فوضعه على قاعدة من القواعد الخشبية وقال وهو ينظر اليه :

ـــ هل يستطيع الله صنعها ؟

فأجابت البربرية وكانت تصغى لكل هذا الحديث ولا تقول شيئاً :

ـــ ولكنها باردة

فصاح الاعرابى مهللا :

ـــ هذا أحسن ماقيل ! خيبة حية خير من قدوة ميتة ! لقد أنصفت الله من هذا المثال المجترىء الذى كان يحق على أن أقتله لو لم تطعنيه بكلمتك

قال المثال :

ـــ ومع ذلك مازلت حياً ! لكن هذه الفتاة ! سوف يأتى اليوم الذى يبرد فيه جسمها أكثر من المرمر ، فاذا أخذت هذا التمثال وقطعته اثنتين وجدته مرمراً من الداخل كما هو

من ظاهره ، أما هى فاذا قطعت جسمها اثنين فياهول ماترى فى داخله !

قال الاعرابى مخاطباً المثال :

— لست أجد فى حديثك أية تسلية

ثم التفت الى البربرية وقال لها :

— وأنت أيتها الفتاة . لا يزال فى بيتى مكان خال لزوجة أخرى . وأنت جميلة وجسمك لامع كالحرير وتفيضين حياة

فسألته الفتاة :

— كم زوجة لك ؟

أجاب الاعرابى :

— لم أعدهن منذ زمن طويل . ولكن عندى منهن عدد وفير يثبت لك أننى خبير فى الزواج وقادر على اسعاد النساء بقدر ما يسمح به الله .

قالت البربرية :

— أنا لست أبحث عن السعادة . بل أنا أبحث عن الله

سألها الساحر :

— ولم تجديه بعد ؟

— أجابت الفتاة :

ـ وجدت آلهة كثيرة . وكلما عثرت بواحد عرفني بآله له . واخيراً هذا الرجل المثال هنا الذى يملك عدداً كبيراً منهـــا فى خيمته . ولـكنى أراها كلها انصاف موتى ما عدا ذلك التمثال الذى يمثل نصف حيوان ، الموضوع هناك على الرف الأعلى يلعب على موسيقا الفم وهو نصف آدمى و نصف ماعز إنه قريب جداً من الطبيعة . لأنى أنا نصف امرأة و نصف ماعز . وكم وددت لو كنت آلهة ! ولـكن حتى هذا التمثال نصف ماعز ونصف رجل ! لماذا لا يكون بين الآلهة أنصاف نساء أيضاً ؟

سألها المثال وهو يشير لتمثال فينوس :

ـ وما رأيك فى هذا ؟

سألته البربرية :

ـ ولماذا تخفى نصفها السفلى ؟ انها ليست آلهة وليست امرأة . انها خجلى من نصف جسمها ، وأما النصف الآخر فهو ما يسميه البيض جسم سيدة . وهى سيدة جميلة يفرح حاكم عام أن يجعلها على رأس بيته ولـكنها عندى أنا لا نفع فيها ما دامت بغير ضمير لا يجعلها تتشبه بالله

قال الساحر :



ـــ أن الكلمة سوف تكون من لحم لا من مرمر ولا محل لشكواك من ان جسوم هؤلاء الآلهة لرجال لانهم ان لم يمثلوا الانسانية فى الآلهة فكيف يتاح لك وانت انسان ان تدخلى فى وسط الآلهة ، وكيف يمكن ايجاد الصلة بين الالوهية والانسانية ؟ لابد وان يتحول بعض الآلهة إلى رجال .

أجابت البربرية :

ـــ أو تتحول بعض النسوة إلى آلهات ! وهذا أحسن عندى لان الآله الذى ينزل إلى مرتبة الآدميين يحتقر نفسه ، أما المرأة التى تصعد إلى مرتبة الآلهة فانها تمجد نفسها .

قال الاعرابى :

ـــ حسبى الله فى كل النساء المتعبات ! انك أزعج امرأة رأيتها فى حياتى . وانه لسر من اسرار الله ان يجعل النساء مزعجات بقدر ما فيهن من جمال . وكلما زادهن من اسباب الهناءة زدن قلقا ونهماً . وهذه انت ايتها الفتاة حتى الله نفسه صاحب الحول والطول لا يرضيك ، فقولى اذن اى آله أو آلهة ترتضين ؟

قالت البربرية :

ـــ توجد آلهة سمعت اسمها وأود أن اعرف عنها اكثر مما

أعرف . أسمها ناقص سين وأحس انها تستطيع أن تعمل شيئا لا يستطيعه غيرها من الآلهة .

قال المثال :

— لا توجد آلهة بهذا الوصف . جميع الآلهة والآلهات ممثلة عندى هنا فى هذه المجموعة . وأذكرانى لم أعمل فى حياتى آلهة باسم ناقص سين !

قالت الفتاة :

— هى موجودة بكل تأكيد لان السيدة البيضاء تكلمت عنها بكل احترام ، وقالت ان مفتاح العالم هو جذرها ، وان لا جسم لها فهى كالرقم ، وانها وجدت قبل كل شيء لابعده كما وجد الله قبل الخليقة . وهى ليست ناقص سين ولكنها ما يضرب فى نفسه ليعطى ناقص سين . شيء كهذا يجب ان يكون وضعه فى بدء الخليقة لانه يبقى بعد ان نوضع نحن فى التراب الذى خلقنا منه . وقد كنت طفلة وأنا افكر واسائل نفسى كيف وجد العدد واحد ؟ لأن من يفكر فى بقية الاعداد يجد انها جميعا مضافة الى العدد واحد ، ولكن ما هو العدد الواحد؟ والآن عرفت ان العدد الواحد هو وحده الذى يضرب فى نفسه ليعطى نفسه لا شيئا آخر ، وأنه عدد لا أول له ولا

آخر . فانك كما تستطيع ان تعد من واحد فما فوق إلى ما لا نهاية فأنك تستطيع أن تعد من واحد فما تحت الى مالا نهاية أيضا . وهكذا تستطيع ان تفهم من الاعداد معنى الأبدية .

فقال الاعرابى :

ــ الأبدية فى نفسها وبنفسها لا تعنى شيئا . وماذا يعنينى من الأبدية وأنا لا أجد الحقيقة الأبدية ؟

فأجابت البربرية :

ــ الحقيقة الأبدية الوحيدة هى الأرقام . أما ماسواها من الحقائق فهو زائل أو صائر إلى الخطأ كخيالات الطفولة . وأما حقيقة أن واحدا وواحداً يساويان اثنين وواحدا وعشرة تساوى أحد عشر فسوف تبقى دائما كما هى . ولهذا أشعر بشيء من التقديس للارقام .

فقال المثال :

ــ ولكنك لا تستطيعين ان تأكلى وتشربى الارقام ، ولا أن تتزوجيها ؟ !

فأجابت البربرية :

ــ لقد وهبنا أشياء اخرى نأكلها ونشربها كما جعلنا نتزوج بعضنا بعضا .

فقال المثال :

ـ ولكنك لا تستطيعين رسمها . وهذا يكفيني !

فقال الاعرابي :

ـ نحن العرب نستطيع . وبهذه العلامة سوف نحكم الارض . إنظر !

ثم خط على الأرض بضعة أشكال .

وقالت البربرية :

ـ ان المبشرة تقول ان الله رقم سحرى . هو ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة . فقال الاعرابي :

ـ هذا بسيط . فأنا ابن أبى وأنا ابو أولادى وأنا بمفردى نحن ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة . والانسان بطبيعته طبقات أما الله فهو وحده مفرد . هو بذاته وحدة . أو كما تقولين هو الشيء الذى يضرب فى نفسه فلا يزيد ولا ينقص. هو قلب البصلة الذى لا جسم له والذى بغيره لا توجد البصلة . هو عدد النجوم التى لا تحصى . وهو وزن الهواء الذى لا يوزن . وهو . .

فقاطعة المثال قائلا :

ـ يظهر لى أنك شاعر !

فانتفض الاعرابى لهذه المقاطعة وسحب سيفه واقترب من المثال قائلا :

ــ هل تجرأ على اتهامى بأنى شاعر مضياع ؟ هذه مسبة لا يغسلها غير الدم .

فاعتذر المثال قائلا :

ــ أنا آسف . لم أقصد مطلقا ان أسبك . ولكن قل لى ، كيف تخجل من ان تكون شاعراً تطلق القصيد ليعيش بعدك بينما ترضى ان تكون قاتلا ؟

فأجاب الأعرابى وقد أغمد سيفه وعاد الى هدوئه :

ــ هذا صحيح . وهو سر من أسرار الله . فان الشيطان ذا عمل شعراً فاسداً أرسل الله عليه لحنا مقدساً يمحوه ومع ذلك فقد كنت طول عمرى راعياً أميناً لا اتقاضى أجراً على غنائى مع شغفى الشديد به .

قال الساحر :

ــ وأنا كذلك لم أكن منصفاً لنفسى . كانوا يصفوننى بأنى كثير الأكل والشرب . ولم أكن أصوم وكنت أحن كثيراً إلى النساء اللائى لا يقمن بواجباتهن . ولم أكن براً بامى ولا بأهلى الذين يجعل الله من مقرهم منزلا يرفرف

عليه بنفسه كوالد لجميع من فيه

فقال الأعرابي :

ــ إن الرجل أحوج ما يكون إلى زوجات كثيرات وإلى أسرة كبيرة تحول دون سأمه من الحياة ، وذلك كي يوزع محبته بينهن ، وهو لا يعرف قيمة كل امرأة إلا بعد أن يرى كثيرات ليستطيع أن يقارن بينهن . فأنا لم أدرك أن زوجتى الأولى كانت ملاكا إلا بعد أن تحققت أن زوجتى الأخيرة كانت شيطاناً .

فسألته البربرية قائلة :

ــ وزوجاتك ؟ هل يجب أن يعرفن رجلا غيرك لكى يقدرنك ؟

فصاح الأعرابى قائلا :

ــ أعوذ بالله من ابنة الشيطان الأسود هذه ! تعلمى أن تسكتى أيتها المرأة عند ما تسمعين الرجال ينطقون بالحكمة . لقد خلق الله الرجل قبل المرأة .

فأجابت البربرية :

ــ الرأى الثانى هو الأصوب دائماً . واذا كان ما تقوله حقاً فان الله خلق المرأة لأنه وجد أن الرجل غير كاف .

ولكن قل بأى حق تريد أن تحكم على خمسين زوجة بان يخضعن جميعاً لزوج واحد ؟

أجاب الأعرابى :

— لو وهبت حياة ثانية لعشت راهباً أعزب ، وأقفلت بابى فى وجه كل امرأة وكل ما يتعلق بالنساء . ولكن لا تنسى انه لو كانت لى امرأة واحدة لأنكرت حق أى امرأة أخرى علىّ فى الوقت الذى تشتهيتنى فيه نساء أخريات بقدر مافىّ من فخامة ، وما فيهن من تقدير . والمرأة المستنيرة التى تريد أن تتخير لأبنائها أحسن أب تؤثر أن تشاطر خمسين امرأة غيرها فى رجل ممتاز على أن تستأثر وحدها بنفاية آدمية لا قيمة لها . لماذا لا ترضى بهذه النفاية إذا كانت تستطيع أن تحصل على ماهو خير منها ؟

قالت البربرية :

— وكيف تستطيع المرأة أن تعرف مزاياك وتقدرك إلا إذا كانت قد عرفت خمسين رجلا قبلك ؟ أليست المعرفة والتقدير تقومان على أساس الموازنة ؟

صاح الاعرابى مستجيراً :

— أعوذ بك يارب يامن خلقت الرجال والنساء جميعاً !

هل يمكن أن يكون للطفل الواحد خمسون أباً ؟ هذا يعني أنه يكون بلا أب !

أجابت البربرية :

ــ وماذا يهم إذا كانت له أم واحدة ؟ ومع ذلك فما تقوله غير صحيح فلا بد أن يكون أحد هؤلاء الخمسين أباً له

قال الاعرابي :

ــ يجب أن تعرفي إذن أن كثيراً من النساء لايخجلن من أن يعرفن عدداً كبيراً لا يحصى من الرجال وهن لا ينجبن أطفالا، بينما انني أنا وأنا أطمع في أن أفوز بكل امرأة جذابة تقع عيناي عليها ، مخصب في ذريتي ، ومن هذا يتضح لك أن عدم المساواة بين المرأة والرجل هوسر من أسرار الله ، عبثاً تحاول المرأة أن تثور عليه . الله سبحانه وتعالى تتمثل فيه وحدة القوة والجبروت وحكمه العادل فوق ادراكنا نحن . لقد وفر الله علينا الآلام التي تتحملها نسائي عند ما يضعن ويصرخن ويقطعن نياط قلبي بصراخهن إلى حد يجعلني أحياناً لا أرى في هذه الآلام كل العدل ، ولكن سرعان ما أعود إلى نفسي وأسائلها ماذا تكون النتيجة لو تبادلنا نحن والنساء أعمالنا في الحياة ، فقمن هن بتكاليفنا وقمنا نحن بأعبائهن بما

فيها الولادة ، أترى نظام الطبيعة يسير كما هو ؟ أبداً لن يكون ولن يسمح به الله مطلقاً

قالت البربرية :

— إعلم أننا لا نستطيع مقاومة الطبيعة . فأنتم لا تستطيعون الحمل والولادة . ولكن المرأة تستطيع أن يكون لها أكثر من زوج واحد وتستطيع أن تنجب أطفالا أكثر بشرط ألا تجمع بين زوجين فى وقت واحد

قال الأعرابى :

— واليك مثلا آخر من أحكام الله غير العادلة ، أن يكون للمرأة الكلمة الأخيرة ! خير لى أن أخرس

فسأله المثال :

— وماذا يحدث إذن لو اجتمعت الخمسون امرأة حول رجلهن الواحد وحتمت كل منهن أن تكون لها الكلمة الأخيرة ؟

أجاب الاعرابى وهو يتأوه :

— عندئذ تصبح الحياة جحيما قد تفتحت أبوابه أمام الرجل ليكفر عن كل خطيئة ارتكبها ولا ينقذه من هذا الجحيم إلا رحمة الله الواسعة

أدارت البربرية وجهها لتسير فى طريقها وقالت :

ـــ لن أجد الله فى مكان يتحدث فيه الرجال عن النساء

ولاحقها المثال بقوله :

ـــ ولا فى مكان يتحدث فيه النساء عن الرجال

وأشارت بيدها اليهم مؤمنة وانطلقت تبحث عن الله

وصلت البربرية فى سيرها إلى بيت صغير مفرد تحيط به حديقة غناء تبدو عليها عناية الهواة ، غرستها يد سيد كهل نحيل ، ذى عينين أخاذتين جعلتا من جميع وجهه عيوناً مفتوحة ، وله أنف مستوقف لا يمكن أن تمر عليه العين بغير أن تقف أمامه مشاهدة ، وفم معبر تطبق شفتيه روح السخرية المؤذية التى تجعل من جميع الوجه فماً أخاذاً ، جعل البربرية ترى فى تنافر العيون والأنف والفم مايدل على الذكاء الخارق الذى دفعها إلى الرغبة فى محادثة الرجل فابتدرته قائلة :

ـــ معذرة أيها السيد . هل تسمح لى أن أكلمك ؟

فقال السيد الكهل :

ـــ ماذا تريدين ؟

فقالت :

ـــ أردت أن أسأل عن الطريق إلى الله . ولما رأيته فى وجهك من سيماء المعرفة التى لم أرها من قبل . أردت أن



أسالك أنت .

فأجاب السيد :

ــ ادخلى أيتها الفتــاة . لقد وجدت أخيراً وبعد بحث طويل أن خير مكان يبحث فيه عن الله هو الحديقــة حيث يمكنك أن تحفرى وتنقبي عنه فى أرضها !

فتبرمت البربرية وأجابت :

ــ ليست هذه فكرتى فى البحث عن الله مطلقاً . أشكرك سأسير فى طريق

فسألها السيد :

ــ وهل أدت بك فكرتك التى تقولين عنها إلى العثور عليه؟

فوقفت الفتاة وأجابت :

ــ لا . لا أستطيع القول بأنهـا أدت ولـكنى مع ذلك لا أتفق معك فى فكرتك

قال السيد :

ــ كثير من الناس لم يحبوا الله بعد أن وجدوه . فقضوا بقية عمرهم فى الهروب منه . فكيف تقدرين انك سوف تحبينه؟

فقالت الفتاة :

ــ لا أعرف . ولـكن مبشرتى عنـدها بيت من الشعر

يقول انه محتوم علينا أن نحب الأعلى عند ما نراه .

قال السيد :

ـــ هو أحمق ذلك الشـــاعر الذى وضع هذا البيت . فنحن نكرهه ونصلبه ونقتله بالسم ونحرقه حياً . لقد قضيت حياتى كلها وأنا أعمل فى طريق الله وأعلم أعداءه كيف يضحكون من أنفسهم ، ولكن إذا قلت لى أن الله سوف ينزل إلى الطريق فاننى أنزوى فى أقرب جحر فأر ولا أجرؤ أن أتنفس حتى يمر فى طريقه ويصبح بعيداً عنى . لأنه لو رآنى أو شم رائحتى لما اكتفى بأن يضع قدمه علىّ ويسحقنى، كما أسحق أنا حشرة صغيرة سامة أراها تعصى أوامرى . أما أولئك الناس الذين يجرون وراء الله وهم يصيحون « آه لو عرفنا أين نجده ؟ » فلا بد أن تكون عقيدتهم فى أنفسهم كبيرة هائلة حتى يروا فيها امكان الوقوف أمامه . هل قصت عليك مبشرتك قصة جوبيتر وسملة ؟

فأجابت البربرية :

ـــ لا . ماهى هذه القصة ؟

قال السيد :

ـــ جوبيتر ـــ هو أحد أسماء الله ، تعرفين ان له أسماء .

كثيرة ، أليس كذلك ؟

فأجابت : نعم

قال :

ـــ أحب جوبيتر سملة وراعى ظرفها فكان يظهر لهـا في صورة رجل . إلا أنها هى كانت ترى فى نفسها الاستعداد والكفاية لتكون محبوبة آله يبدو لها فى عظمة الآلهة الكاملة، فألحت عليه أن يأتى فى دروعه الكاملة التى يرتديها وهو آله

فسألت البربرية والشوق يدفعها لاتمـام القصة :

ـــ وماذا حدث بعد مجيئه كذلك ؟

أجاب السيد الكهل :

ـــ حدث ما كان يجب عليها أن تعرفه لو كان عندها ذرة من العقل . صعقت وتقلصت كالذبابة إذا ألقيت فى النـار ، فاحذرى ولا تكونى فى حماقة سمله ، ان الله على قيد ذراع منك وقد كان دائماً كذلك إلا أن رحمته المقدسة لم تشأ أن تطلعك عليه اطلاعا كاملا فيصيبك مس من الجنون ، أعملى لنفسك حديقة صغيرة واحفريهـا واغرسيها وقلبيها ونسقيها واقنعى بدفعـة تنال ذراعك من الله إذا لم تحسنى زرعك ، بقدر ما يصيبك من بركة إذا أحسنتيه

سالت البربرية :

— أو سنبقى دائما لا نقوى على مشاهدته فى كامل مظهره ؟

فاجاب الفيلسوف الكهل :

— اعتقد أننا سنظل كذلك لا نقوى على احتمال مشاهدته إلا إذا حققنا كل أغراضه وهذا يقتضى أن نصبح نحن آلهة . ولما كانت أغراضه لا حد لها ولا نهاية ، ونحن أنفسنا محدودون من كل ناحية ، فنحن لن نقوى على ان نحقق أغراضه والحمد لله . وهذا خير لنا . إذ لو تحققت كل أغراضه فلن تصبح من وجودنا فى هذا العالم أية فائدة ، لانه لم يخلقنا ويطلقنا فى هذا العالم ليتمتع بمشاهدتنا ونحن كالحشرات القبيحة الصورة القصيرة الأجل . هيا أيتها الفتاة إدخلى ادخلى وتعالى عاونينى فى غرس هذه الحديقة من أجل تمجيده واتركى ما بعد ذلك له يفعل ما يشاء

فدخلت البربرية حديقة السيد الكهل ، ووضعت صولجانها جانباً ثم استقرت تزرع الحديقة معه ، وكان يعاونها بين وقت وآخر بعض الناس ، فكان ذلك يغيظ البربرية فى بادىء الامر حسداً . لكنها ألفت مجيئهم ومساعداتهم فلم تعد تأبه لها .

وكانت البربرية تمر ذات يوم فى الحديقة فرأت رجلا

ايرلانديا احمر الشعر يزرع فى الجانب الخلفى من الحديقة حيث كانت خضراوات المطبخ مزروعة فسألته :

ـــ من أدخلك إلى هنا ؟

أجاب الرجل :

ـــ عجيب هو أمرك ! أدخلت نفسى ، ولم لا أدخل ؟

قالت الفتاة :

ـــ لأن الحديقة لهذا السيد العجوز وليست حديقتك !؟

قال الرجل :

ـــ انى اشـــــترا كى لا أعترف لاحد بملكية الحدائق. وهذا الرجل العجوز أصبح غير قادر على عزق الارض لزرع البطاطس بينما تطورت أساليب زرعه تطورا كبيرا لم يدركه هذا الشيخ الفانى

سألته البربرية :

ـــ اذن أنت لم تأت لتبحث عن الله هنا ؟

أجاب الرجل الأرلندى :

ـــ يبحث عنه الشيطان . واذا كان الله يريد منى شيئا فليبحث عنى هو . أما أنا فاعتقادي أنه ليس كل ما يتصوره الناس عنه . فهو شيء لم يكمل صنعه بعد . فينا شيء خفى يجذبنا

اليه وفينا شيء خارجي يجذبنا اليه . هذا مؤكد . والشيء المؤكد الثاني هو أن هذه الاشياء الداخلة والخارجة توقعنا في كثير من الأخطاء أثناء حركتها في الدخول والخروج وكل ما يجب علينا هو أن نسهل لها أحسن الطرق للاستقرار . هذه مهمتنا أنا وأنت الى جانب ذلك الجحيم من قطيع الناس الذين لا يعنون بشيء في العالم غير بطونهم

ثم عاد الى فأسه واستمر يعزق الأرض. ونظرت البربرية للسيد العجوز ونظر اليها وقد أدركا أن هذا الارلندي رفيق وعر ولكنه نافع في زراعة الارض فلا بأس من بقائه . وابقياه فعلا وبدآ يهذبان من طباعه ومن لغته لكنهما لم يوفقا لاقناعه بأية وسيلة بأن الله شيء أكثر مادية واقناعا من أية أبدية ومع ذلك فهو غرض لاحد لتحقيقه لو أن هذا التحقيق لم تبسطه الأشتراكيه في حدود العقل وتجعل فيه أملا

ومع ذلك فقد استطاعا ان يهذبا من طباعه وملبسه ويجعلا منه شخصا نظيفا حتى انهما ألفا حديثه بما فيه من أضاحيك فجة سقيمه . وذات يوم قال السيد العجوز للبربرية :

— ليس ظريفاً أن تبقى امرأة شابة حلوة مثلك بغير زوج ولا ذرية وأنا عجوز ، لهذا أرى أن تتزوجي من هذا الرجل

الارلندى .

ثارت ثائرة الفتاة لهـذا القول لانها لم تكن تتوقع وقد تعلقت به كل هذا التعلق وأخلصت له كل هذا الاخلاص أن يقترح عليهـا الزواج من غيره وقضت ليلة كاملة وهى تحاول أن تطرد الارلندى من البيت ولـكنها لم تفلح .

لم تكن الفتاة مقتنعة بأن السيد العجوز ولد قبلهـا بستين سنة وانه سيموت قبلها ويتركهـا بغير رفيق ، ولـكنه لم يزل وراءها يحك الحقائق على أنفها ويقنعهـا بكافة الوسائل حتى أذعنت وسارت معه الى الحديقة فأعلن السيد العجوز الرجل الارلندى بأن البربرية ستكون زوجته .

لم يكد الرجل يسمع هذا الخبر حتى صرخ صرخة عالية واندفع نحو باب الحديقة يلتمس الهرب ، وكانت الفتـاة قد احتاطت للامر فأحكمت قفل الباب ، ولذلك انقضا عليـه وأعاداه الى مكانه وهو يقول وقد نسى كل ما تعلمه :

— أنا اتزوج بربرية كافرة سوداء كهذه الفتاة ؟! دعونى أذهب . أنا لا أريد أن أتزوج أحداً ما

لـكن الفتاة قبضت عليه بيد من حديد ولو انها يد ناعمة وأخذ السيد العجوز يفهمه بأنه لو هرب فانه واقع لا محـالة



فى مخالب امرأة لا تعنى بالبحث عن الله صفراء الجلد مجعدته لا سوداء ناعمة كالحرير الذى اعتاده وألفه

وأخيراً وبعد جدال لبث أكثر من نصف ساعة، وبعد جرعات من زجاجة شراب قديم كان يحفظه السيد العجوز ليشجعه به، قال الرجل الارلندى:

ــ حسنا لا يهمنى إذا تزوجت.

وتزوجا، وأنجبا؛ وعكفت البربرية على زوجها وأطفالها السمر فى لون البن تعنى بهم وأصبحت بهم شغوفة الى حد أن شغلتها حديقتها ورتق ثياب زوجها فى معظم الوقت عن بحثها عن الله، إلا فى أوقات أظهرها كانت أوقات تجفيفها لجسم طفلها الاسود بعد حمامه اليومى الذى كان يهدئه ويسلس قياده، حيث كان خياله يسبح الى الماضى القريب ويعود الى بحثها الطويل عن الله. وأدركت الآن مبلغ سخفها اذ كانت فتاة طائشة خرجت تبحث عن الله وهى تظن نفسها مركزا للعالم وقد تعلمت من مبشرتها ان تعتبر الله كرقيب ليس عنده أفضل من أن يرقب كل شىء تعمله ويحاول ان ينقذها من الخطأ

وكانت تدلل طفلها الاسمر وتقول له:



— فلنفرض انى وجدت الله فى البيت فماذا يجب علىَّ ان أفعل اذا قال لى انى بقيت طويلا وأن لديه أشياء أخرى تحتاج الى عنايته والتفاته ؟

وكان هـذا سؤالا لم يستطع طفلها الصغير أن يجيب عليه بأكثر من ضحكة بريئة وقفزة الى معصميها يتناولهما بيديه الصغيرتين .

ومضى وقت طويل قبل أن يشب الأطفـال الصغار ويصبحوا بعيدين عن التعلق المستمر بأمهم ، ثم يصبح الزوج الارلندى شيئاً مألوفاً لديها كأنه جزء منهـــا حتى أخذت تعاودها فى أوقات فراغها ووحدتهـا أمثال تلك الخيالات والأسئلة وفى ذلك الوقت كانـــ عقلها قد بلغ من النمو والاكتمال حداً أكبر من التسلية بتكسير المعبودات المختلفة بصولجانها الخشبى .

خلاصة وتحليـــل

بقلم برنارد شو

ألهمت أن أكتب هذه القصة خلال إقامتى فى بلدة كنيسنا خمسة أسابيع قضيتها فى صيف أفريقيا الذى وافق شتاء انجلترا لعام ١٩٣٢

كان فى عزمى أن أكتب قصة للمسرح كالقصص التى أكتبها عادة بحكم عملى ، غير أنى وجدت نفسى أكتب قصة البربرية بدلها ، والآن وقد انتهيت من كتابتها فأنى سأبدأ فى تفسير ما تعنيه هذه القصة ولو أننى لا أريد أن أكرر مرة أخرى أنى كأى فرد عرضـــة للخطأ فى هذا التفسير وأن الكتاب المجددين ككل مجددين ومكتشفين كثيراً ما يخطئون حيث يعتقدون أنهم أصابوا كما حدث لكولومبس ، ويدعوهم هذا الخطأ أحيانا الى الهرب من وجه النتائج التى أدت بهم خيالاتهم الى كشفها . وأنا مؤمن بما تمسك به سانتوماس

اكويناس من الاعتقاد بأن كل الحقائق قديمها وحديثها ، إنما هى إلهام سماوى ، ولكن إلى جانب ذلك الايمان علمتنى الملاحظة والاستقصاء أن الأداة التى تستند اليها قوة الالهام قد تكون أبعد ما يكون عن الصواب ، وربما تنتهى بما انتهى اليه بانيان فى الحرب المقدسة من سخف رسالته وضياعها

وعلى أية حال فأنى أضع تلخيص موضوع القصة وغرضى منها للبحث والتقدير :

كثيراً ما يصف غير المتعمقين الجنس الأنسانى بأنه جنس محافظ لا تنفذ اليه الأفكار الجديدة . أما أنا فلم أجد الأمر كذلك ، بل وجدته على العكس ، كثيراً ما أدهشتنى رغبة الناس وتلهفهم لأختطاف الآراء الجديدة واعتناقهم لها بغير أن يكون فيها أقل قبس من الوضوح والصحة . والناس يصدقون أى شىء يدخل الى نفوسهم السرور أو التسلية أو يعدهم بمنفعة . وأنا أعزى نفسى بما عزى به (ستيوارت مل) نفسه من أن الزمن كفيل بالقضاء على خلابة الآراء السخيفة . وعلى تعلق الناس بها بل وعلى وجودها أصلا ، ومن أن الوعود الكاذبة عند ما تخلف تمر فى حلقة النسيان الى الهباء وأنه بعد أن تتم هذه التصفية تبقى الآراء الصحيحة غير القابلة

للدمار مهما أصابها من الاضطهاد أوالنسيان اللذين لا يمنعان معاودتها للظهور المرة بعد المرة ، تبقى وتضاف الى كتلة المعرفة الصحيحة التى نسميها العلم ؛ وبهذه الطريقة نحصل على طائفة من الآراء الصحيحة بالأختبار ، نغذى بها عقولنا تغذية هى التربية الحقة التى تختلف كل الاختلاف عن التربية التى تلقنها المدارس والجامعات .

ويقوم لسوء الحظ فى وجه هذه الخطة السهلة نقص يتمثل فى الحكمة القديمة البالغة « لا تلق ماءك القذر قبل أن يأتيك الماء النظيف » وهى حكمة من حكم الشيطان اذا لم تعدل الى « عند ما تحصل على الماء النظيف إلق القذر بعيدا واحرص كل الحرص على ألا تخلطهما »

وهذا حق ولكننا لا نعمل به فنحن مستمرون على صب الماء النظيف على القـذر وبهذا نجعل عقولنا مغرقة أبداً فى خليطها ، الذى يجعل عقلية الرجل المهذب فى هذا العصر أشبه بمخزن تكدست فيه نفاية الزجاجات الفارغة ، وتوافه التحف الفارغة الملقاة فى مخزن أحد المتاحف تعلوها أحدث وأغلى المقتنيات فى غير نظام ولا تناسق ، وهذا المخزن فى إفلاس دائم ، بين ملاكه وليم الفاتح وهنرى السابع وموسى

وعيسى وسانت أوغستين وسير إسحاق نيوتن وكالفن وويزلى. والملكة فيكتوريا ومستر ويلز بينما بين دائنيه كارل ماركس. وا ينشتين وعشرات من الناس يشبهون فى كثير وقليل. سنيورت مل وشخصى .

لا يستطيع العقل مطلقاً أن يعمل فى حدود الاتزان فى مثل هذا الخضم . ولما كانت مهمة مدارسنا وكلياتنا تنحصر فى حشو هذا الخليط من التفكير فى أدمغة كل جيل ناشىء فاننا مستمرون فى إغراق الحياة الفكرية بموجات ثوروية يرغم فيها المغرقون فى هذا الخلط من خريجى الجامعات على الاستعباد السياسى وبالتالى على النقص التطبيقى الذى تحملهم إياه رسمية خبلهم الجامعى وتفلت من أيديهم ادارة الأعمال لتعطيها لمن كونوا ودربوا أنفسهم ، وللبسطاء الذين لم يعرفوا هذا الخلط .

وأوضح مثل على هذا الخلط المخبول المستمر فى الأخذ بالآراء الجديدة بغير التفكير فى تصفية ما سبقها من الآراء هو بقاء التوراة والأنجيل فى البلاد التى بسطت فيها الترجمة الانجليزية الفنية العجيبة قوتها السحرية على قرائها ، تلك القوة التى بدأت تذوى الآن بانقراض انجليزية القرن السادس عشر من بيننا

الآن . نحن نفرض على أنفسنا ترجمات جديدة لسبب بسيط جداً هو أن الناس الآن لا يفهمون اللغة القديمة ، والترجمات العادية بلغتها الصحفية الدارجة سرعان ما وضعت أقاصيص التوراة والأنجيل فى ضوء الحقيقة العادية التى تحتم على قرائها أن يحكموا فى وزنها تجاريبهم وعقلياتهم . غير أن تأثير هذه الترجمات الحديثة لم يتسع مداه بعد ، ويبدو لى أن أولئك الذين يجدون الترجمة القديمة مملة وغير مفهومة لا يلتجئون للترجمات الحديثة ، ويؤثرون عليها الانقطاع أصلا عن قراءة الكتاب المقدس ، والقليل من الناس ممن تعجبهم الترجمات الحديثة لا يقرءونها إلا فى مناسبة ، وما دامت مناسبه فقليلا ما يمرون ، ولكنهم يستمرون فى سماع الوعظ يلقى فى الكنائس باللغة القديمة ، وبنغمة مؤثرة معينة ، ويستمرون فى سماع الأطفال يعيدون مايحفظونه أيام الآحاد عن ظهر قلب ويرون المستظهرين المجيدين منهم توزع عليهم صور خلابة بها آيات مكتوبة بهذه اللغة القديمة ، ومازالت غرف النوم وحجر الأطفال تزين بهذه الكتابات والنقوش والحكم للآن .

ولقد وزعت الجمعية البريطانية للكتاب المقدس فى الخارج

من الكتب المقدسة نسخا يقدر عددها بثلاثة ملايين كل سنة خلال المائة سنة الأخيرة ، ومع أن كثيرا من هذه النسخ يحمله رواد الكنائس جيئة ورواحا بغير أن يفتحوه طول أيام الأسبوع ، وكثيراً منها أيضا يوزعه الآباء والأجداد على أطفالهم كهدايا ، ألا أن هذا العدد الجسيم جدير بالاعتبار إذا قدرنا الى جانبه حقيقة أنه لا يزال فى صلب الكتاب المقــــدس نص لا يجرأ ولى من أولياء الحكم على تبديله أو مسه ، هذا هو النص الذى يعتبر مناقشة الحقيقة العلمية والسلطة والحقوق الطبيعية التى تتمثل فى كل كلمة من كلمات الكتاب المقدس جرماً يستأهل عقوبات صارمة فظيعة لا تحدها قوانين .

كذلك نجد فى مقدمة مواد قانون الكنيسة الأنجليزية وجوب اعتبار الكتاب المقدس دائرة معارف معصومة ، بينما نجد مادة أخرى هى الأولى فى مواد القانون تنكر بكل وضوح الطبيعة الجسدية النهمة المنصوص فى أسفار التوراة الأولى على أنها من صفات الله .

فى كل الأمثلة يعنى الكتاب المقدس الترجمة التى أجازها الملك جيمس الأول لأحسن أمثال الادب اليهودي القديم فى

تناوله التاريخ الطبيعى والسياسى والشعر والأخلاق واللاهوت والقصيد ، وقد أجاد المترجمون إجادة بالغة بسبب اعتقادهم أنفسهم أن ما كانوا متعلقين به لم يكن مجموعة كتب قديمة عجيبة لعدة مؤلفين متفاوتين فى درجات ثقافتهم ، ولكن لاعتقادهم أنهم كانوا ينقلون كلمة الله التى أظهرتها قداسته على السنة كتابه المختارين الملهمين . وقد قاموا بعملهم تحت تأثير هذا الاحترام المطلق وهذه العناية الفائقة ووصلوا إلى نتيجة فنية بديعة كانت تتسلط عليهم فيها فكرة استحالة إحداث أى تغيير فى النصوص اذ من يجرأ على أن يفضل الله فى اسلوبه ؟ ولم يتورعوا مطلقا فى أن يقلبوا النفى اثباتاً اذا احتاج الأمر ووجدوا أنهم لا يستطيعون قبول نص مقدس يتعارض مع ما يعتقدون فى أنه حقائق دينهم ، وكذلك لم يكونوا على ثقة تامة من معرفتهم باللغة العبرية القديمة عند ما كانت تنافى اساس عقيدتهم وما كانوا يشكون فى رعاية الله لرسالته من الفساد وهى بين أيديهم ، وهم الذين لا ينقطعون عن الصلاة له ليلا ونهارا .

بهذه الروح العالية السماوية ابدعوا فى ترجمتهم إلى حد أن الرجل البريطانى العادى الذى يسكن الولايات المتحدة فى امريكا الشمالية يقبل على هذه الترجمة ويعبدها باعتبار

انها كتاب فريد لمؤلف مفرد ، والكتاب هو كتاب الكتب والمؤلف هو الله . وقد امتـــدح هاندل خلابته ، ووعده بالخلاص ، وحنانه وجلاله ووضعه فى مكان لا يسمى اليه ، وهاندل هو الذى يبكى الملحدين ويجعل الطبيعيين يقرون بعجزهم عن معالاة مسيحه وحتى الجهلة الذين ينظرون للدين كأنه سحر بحت ، أصبحوا يجعلون من هذا الكتاب المقدس حرزاً يدرأون به العفاريت ، وحائلا بين الشهود والكذب ، ويعتقدون ان من يحمله من الجند بعقيدة صحيحة فانه يتقى به شر الرصاص .

واذن فجلى ان هـذا الوضع الفوق الطبيعى للكتاب المقدس ولو أنه ربما يصل فى خيز مظاهره الى أسمى ذروة فيحتفظ برأسه فى السماء الا أنه قديتعرض للهزؤ والخطورة وقدماه بعيدتان عن الارض وهذه تجربة تقع كل يوم وتثبت ان كل كتاب يؤخذ كقضية لا سبيل الى تسرب الباطل اليها سواء كان المؤلف موسى أو حزقيل أو بولس أوسويدنبرج أو جوزيف سمث أو مارى بيكر أو كارل ماركس فانه غالبا يحمل الى نفوسنا مثل ذلك الأمل وتلك التعزية ويثير فى اعماق نفوسنا هناءة ورغبة فى الحياة تجعلنا حريصين كل

الحرص على التمسك به كمفتاح للجنة . ولكن اتضح أن
هذه الجنة لا تصلح الا للمجانين كما يكون الواقع لو تلاشت
مادياتها وأصبحت خيالات وتصورات ، فان هذا الكتاب
يصبح اساسا غير صالح لقيام الحكم عليه ويتخذ مكانه بين
المخدرات والمسكنات والعقاقير التى تسكن بها الآلام الصارخة
الى وقت ما . وليس عبثا ما لجأ اليه زعماء الدين المتعصبين فى
روسيا الجديدة من نبذ دين الكنيسة الأغريقية واعتباره
خرقة مشبعة بسائل ، أصبحت لا تصلح لغرض ما ، وهذا
هو ما يؤول اليه فعلا كل دين يطلق الواقع ويبتعد عن
الحقائق ، ولو أننا نجد الحكام الطامعين فى الظروف السياسية
الشاذة ينتفعون به فى تهدئة الخواطر الهائجة باستغلال نفوذ
رجال الدين ، إلا أننا لا نستطيع مطلقا فى مجرى التقدم
الطبيعى ان نبتعد عن الحقيقة المجردة وإلا يكون مصيرنا الفناء

نحن الآن نجتاز أزمة عصيبة بين فريقين متناقضين تمام
التناقض ، أحدهما يرفع الكتاب المقدس باسم الدين الى
السحاب ، والآخر يحاول ان يتخلص منه جملة باسم العلم ،
وكلا الأسمين يتداوله الناس بلا حساب وبلا نتيجة الى حد أن
قسيس برمنجهام أعلن فى وسط قومه ان انصار العلم يقتربون

من المسيح أكثر مما يقترب به أنصار الكنيسة ، وأنا كقسيس غير رسمي لكل كنيسة أعلنت وكررت للعلماء أن بين أعضاء جمعية الأصدقاء من رجال الدين من هم أكثر علماً من علماء الحياة الرسميين انفسهم ، وفى وسط هذا الخضم المختلط اجترأت أن أقترح ألا نترك الكتاب المقدس فى السحاب ولا أن نحاول المستحيل بألغائه جملة . لماذا لا نتركه بكل بساطة يضع أقدامه على الأرض ونأخذه لما وجد له فعلا ؟

ومن قبيل المداعبة أود أن أبدى استعدادى لمصارحة البروتستانت بأن وجود الكتاب المقدس فى السحاب كان ينقلب فى بعض الأحيان لصالحهم فى خلال محاولتهم بث حرية التفكير البروتستانتينية كما كانت فى مقاوماتها للكنائس وللحكومات فقد كان الجندى الذى يحمل كتابه المقدس فى يد ، وسلاحه فى الأخرى ، يحارب بقوة عشرة جنود تحت قيادة كرمويل ووليم أورنج وجوستاف أدولف وقد يسمح الخيال للمحافظين جدا بأن يأخذوا بروائية رجال كرمويل فى دنبار إذ كانوا يغنون « يارب يامعيننا فى قديم الزمان » أما الآن فقد أصبح الجندى يقاتل وهو يحمل سلاحه فى يد ، وإحدى الصحف فى اليد الأخرى ولكنه فى قوة الف من جنود العصر

السابق بفضل سلطان الحديد من بنادق ومدافع ، ومع ذلك فالكتاب المقدس ما زال محتفظا بقدسيته فبقى وراء الصحيفة التى يحملها الجندى يوحى اليه بروح الجهاد التى قاتل بها يوشع، والتى جعلت لسيوفنا ثبات سيوف الرب ، وهو يحز أعناق أعدائه الجدد من الألمان بوصف أنهم عبدة وأبناء للشيطان كما كان الكنعانيون من قبل .

كانت ولا تزال الروح واحدة وان اختلف النص الذى كانت تعقد عليه مقاصد الحروب هو الآن (الملك والوطن) وقد كان من قبل (يهوا ضد بعل) مع فارق واحد هو أن الألمان كانوا يحاربون من أجل الملك والوطن أيضاً ، وكانوا مقتنعين تمام الاقتناع مثلنا تماماً بأن يهوا الرب القوى العظيم، القوى فى الحرب ، قائد الجيوش ومسيرها هو ربهم ، وأن ربنا هو عدوه اللدود ، واستعرت نار الحرب المهلكة ، وظلت سجالا بيننا وبينهم ولم تحسمها غير الكثرة التى وضعت حداً للحرب الدامية التى أسالت جروح المدنية الى حد أن أصبحنا لا ندرى اذا كانت هذه الجروح ستنتهى بنا الى الموت ، وهى لا تزال بعد انتهاء الحرب مفتوحة بما توحيه التوراة من تعاليم وطرائق وخرافات، وننظر حولنا فلا نجد شيئا يستحق التسجيل

أكثر من أن الأمة الواحدة التي يبدو أنها تسير بعنف نحو الشفاء هي روسيا التي ألقت بالتوراة في عنف واحتقار الى سلة المهملات ووضعت وهي في وطيس ثورتها ضده ، نظاما ثابتا لأنشاء اطفالها في شكل عصبة من الملحدين، وإلى جانب هذا ، وعلى غير انتظار ، يحملونهم طاعة دعوة عيسى بالمجيء اليه ، بينما نحن ننشيء اطفالنا في معهد التربية الحربي على مبدأ نظرية قسيس برمنجهام من أن الالحاد العلمي يتجه نحو المسيح بينما المسيحية الرسمية تبتعد في شدة وعنف في الاتجاه العكسي .

والموقف له خطورته . فقد كان عبدة يهوا الأقدمون وكل اسلحتهم السيوف والحراب ، ويتبعهم صبية يحملون النبال لا يستطيعون القتل والتخريب جملة ، ولكن الآن وتحت نيران المدافع الضخمة والمدرعات الهائلة والطيارات والمقذوفات الغازية التي تطلق على المدن الآهلة المائجة بملايين الناس الذين يعيشون على ضوء وحرارة وماء وطعام تخرجه لهم آلات مركزية هي منهم بمثابة قلوب وأوعية من حديد ، يستطيع صبي واحد في نصف ساعة وهو في طائرة مدمرة ان ينسفها جميعا ، غير أنه لابد ان نكون على حذر ونحن نقرر هذا فنعلم أن نشاة هذا الصبي هي خير من نشأة نوح ويوشع .

وبعبارة أوضح ، مادمنا لا نستطيع ان نخلص من الكتاب المقدس فانه سوف يتخلص منا مالم نعرف كيف نفهمه فهما صحيحا . وروح هذا الفهم الصحيح كما أعتقد هى روح التجرد الثقافى التى تلزم المفكرين المخلصين ان يقرأوا ،وهم يستجمعون كل حكمتهم ، كل سطر يبدو منه تقديس لسلطة ثم يحكمون بعد ذلك على ما يقرأونه بنفس الروح التى يحكمون بها على القرآن وعلى الادبانيشاد(كتاب البراهمة المقدس) وعلى ألف ليلة وعلى المقال الافتتاحى لجريدة التيمس وعلى صورة الأسبوع الفائت فى مجلة (البنش) وهم يعلمون ان جميع الكلمات المكتوبة متساوية التعرض للالهام المطلق من الينبوع الأبدى بقدر ماهى سواسية تعرضها لخطأ النقص الانسانى لواضعها.

وإذن فسوف تقول : وما هى الفائدة من الكتاب المقدس فى هذه الأيام لأى شخص من غير القدماء المحافظين وغير المولعين بدراسة الادب ؟ ولماذا لاندفنه فى الموقد كما فعل السوفيت ؟ الجواب على هذا انه توجد أمامنا حالة لاسبيل إلى انكارها يقضى علينا العدل ان نعرض لها قبل أن نجيب على هذا السؤال

ماذا حدث لأساس القانون؟ الوصايا العشر؟ انها لم تف حتى بحاجة القبيلة الرحالة التى فرضها عليها موسى وقد كان يستطيع أن يفعل كما فعل محمد من بعده فيحمل الناس على احترامها بادعائه أنها أوحت اليـــــه من طريق ليس فى مقدور البشر ان يفهموه، لكن الوصايا العشر اضطرت لفيتكوس وديوترمى أن يتماها بقوانينهما الموضوعة التى تجعل أشد اليهود تعصباً وأكثرهم تدقيقا لا يستطيعون طاعتها بغير أن يثوروا على تعاليمها الحديثة وبغير أن يهاجموا قوانيننا المجرمة ، مع ان هذه الوصايا مهملة تمام الاهمال الآن لانها فى أبسط معانيها تتناول الضرورات المشتركة فى المجتمع الانسانى حيث لا حاجة الى تدعيم أو ايضاح من الكتاب المقدس . فالوصية الثانيه يؤمن بها الاسلام بينما تتجاهل بل وتهدمها المسيحية برغم نصها على مقاومة سمو الفن الجميل مما يجعلها جديرة بأدق الاعتبار ولو أن واضعها أدرك سحر الموسيقى الكلامية كما أدرك سحر الجمال فى التماثيل المنحوتة لما تردد فى نهينا عن تقديس الكتاب المقدس .

والوصايا العشر فى جملتها لا تطابق ولا تتفق ومقتضيات العصر الحاضر ، فهى لا تذكر كلمة ضد الانواع المختلفة من

السرقات التي يسيغها اولئك اللصوص الذين اقتلعوا الأساس الأخلاقى من مجتمعنا والذين سينتهون بنا الى الفناء الاجتماعى البطىء اذا لم توقظنا صدمة عنيفة كالتى أيقظت روسيا .

ويوجد الى جانب هذه الاعتبارات السلبية اعتبار إيجابى واحد هو أن الدين الذى احتوته الكتب الاولى ما هو إلا مجموعة مراسم فاسدة فجة من التضحيات الانسانية فى سبيل اقامة معبود مجرم لقبيلة ، قد يكون هذا المعبود مثلا سببا فى انقاذ الجنس الانسانى من الفناء فى طوفان ثان بما يدخلون على نفسه من السرور وهو يشم رائحة اللحوم المحترقة عند ما كان نوح يأخذ من كل بهيمة نظيفة ومن كل طير نظيف ويقدم منها شواءاً كقرابين على المذبح . و مع أن هذه المراسم قد محيت تمام المحو من الكتب المتأخرة وأنكرها ربها فى نصوص واضحة جرى بها لسان الرسول ميكا، وهى تطلعنا على تضخم ثقافة اليهود ، فأن تقاليد اراقة الدماء ثمنا لشراء سكوت إله غاضب يثور للأنتقام لنفسه قررت فى نصوص الانجيل حيث تمثلها فى أوضح صورها قصة تعذيب ومحاكمة المسيح بأيدى حكام بيت المقدس من

الرومان حين مثلوا فظاعتهم على طريقة نوح كوسيلة نستطيع أن نخدع بها ضمائرنا ونمحو بها مسؤلياتنا الخلقية وتقلب بها خجلنا الى الاغتباط بتحميل أكتاف المسيح الموجعة كل أخطائنا فى الحياة .

قد يكون من الصعب أن نتصور تفسيراً أبعد عن المسيحية وأحط من هذا التفسير ، وفى الواقع قد لا يكون من غير المعقول مطلقا أن تنحو شعبة التعاون الفكرى لعصبة الامم منحى الكنيسة الرومانيه الكاثوليكيه بمعارضتها لأذاعة الكتاب المقدس إذاعة مخلوطة (الا تحت شروط تسيرها قيادة روحية دقيقة) الى أن تسقط نهائيا وفى غير غموض كل الادعاءات الفوق الطبيعية المصطنعة لأسناده ، لكن للكتاب المقدس فى علم اللاهوت من التدخل فى علوم الحياة اكثر مما للطرائق المادية التى أوجدها القرن التاسع عشر وامتيازه عليها بتناوله البحث فى الحياة نفسها لا محاولة الحلول محل علوم الطبيعة والكيمياء ، غير أن فكرة قبوله للتطور ميئوس منها كل اليأس . فوصفه لمنشأ الحياة وما لابسها من خلق هو مجرد خرافات خيالية ، وما ورد فيه من فلك لا يعدو حد مركزية الارض ، وتعرضه للكواكب العالمية

هو مجرد شرح صبيانى ساذج ، وتاريخه قصص وأساطير .

وكل هذا يجعل ممن يقصرون دراستهم فى هذه النواحى على ما يستقونه من الكتاب المقدس أناساً مشوهى الثقافة لا يصلحون لتولى الأعمال العامة ، ولا لتحمل المسؤوليات الأبوية ، ولا لمجرد التفكير الحر . واذن فخير مكان يوضع فيه الكتاب المقدس هو نفس الرف الذى توضع عليه الطبعة الأولى من دائرة المعارف (بريتانكا) ، وإلى جانبها ، ويكون إذ ذاك كسجل لما كان الناس يعتقدونه فى سالف الزمان ، ومقياساً للبعد الذى سبقوا به عقائدهم العتيقة التى خلفوها وراءهم .

ولا يعنى مطلقاً إمكان تحقيق ما استطاعت روسيا أن تحققه لنفسها الخلاص من الكتاب المقدس جملة ، فكثير مما جاء فيه لا يزال أشد حياة من افتتاحيات الصحف الصباحية ، ومن مناقشات الأمسية البرلمانية . وقصصه التاريخى أمتع فى قراءته من معظم كتبنا التاريخية الحديثة وأقل منها ميلا للتحيز المقصود ، وفى حملاته الثورية ورغباته الخيالية ما يزلزل أقدام رسكين وكارل ماركس ، كذلك فى رواياته عن كبار القواد والمارقين ، إذ أنه يبدى هومر إلى جانبه سطحياً كما أنه يجعل من شكسبير مخرفا ، وغزله الواحد العظيم لا يضارعه غزل .

آخر فى اشباع محب صادق ، فهو خلاصة اجمالية ممثلة فى أمتع الوقائع التاريخية لقبيلة أفرادها جبابرة العقول ، واسعو الخيال شديدو الرغبة فى الاستطلاع ، مروا خلاله فى عبوديات قاسية فتطوروا إلى أمة كان يحدوهم فى المصير اليها تصورهم أنهم (شعب الله المختار) وبالتالى الورثة الطبيعيون لكل الأرض ، ثم انقلبوا فيما بعد هذه الحياة إلى نعيم أبدى فى ملكوت السماوات. كذلك لا ينكر هذا التاريخ حقيقة أن هذه الخيالات أدت فى النهاية إلى تشتيتهم وإلى تحلل جنسياتهم وإلى اضطهادهم المستمر من الدول المنظمة التى وإن كانت لا تقل إيماناً باحتكار فضائل مقدسة ربحتها بأعمالها ، فانهـــا قدمت لليهود تحية مشاركتهم فى آلهة العبرانيين وأنبيائهم ، إذ بدت لهم فى جملتها أنفع للحكام المطلقين من غيرها مما هو فى متناولهم .

والفرق عظيم بين بربرى غير متعلم وشخص قرأ كتاباً كهذا (بعد حذف تلك الأسانيد السخيفة وهاتيك الخرافات الطارئة التى أخرجتها خيالات المترجمين وهم يحاولون الترجمة من لغات لا يفهمونها تمام الفهم) .

ومجتمع يفرض عليه تاريخ كهذا يلقنه أفراده فى البيت وفى المدرسة ، قد يكون أشد خطراً على جيرته وأكثر تعرضاً

للدمار بسبب المصادمات التى يخلقها التبرم والزهو ، من مجتمع لا يقرأ شيئاً أو يقرأ قصصاً سخيفاً ويعنى باستطلاع نتائج أشواط كرة القدم ومقالات الجرائد ، ولكنه رغم كل ذلك مجتمع عالى الثقافة . وإذن فليس من المدهش فى شىء ولا من غير المعقول أن نجد كثيراً ممن ليس يخدعهم الكتاب المقدس لأنهم يفهمون تمام الفهم كل نقائصه ، نرى هؤلاء يؤيدون التربية الدينية كأهون الشرين . عند ما يرون أن البديل الواحد للتربية الدينية هو تربية ليست مطلقة الحرية تماماً . وهذا هو السبب فى أن مجرد نقد التربية الدينية قليل الجدوى . فالتاريخ العبرانى القديم والأدب العبرانى القديم ، على ما فيهما من خرافة ، هما خير من لا تاريخ ولا أدب . وأنا لست أندم ولا أنفر من تربيتى الدينية وخاصة بعد أن قوى إدراكى الى حد أن استطعت أن أزنها بقيمتها الحقيقية . وعلى أسوأ الفروض فان الكتاب المقدس يعطى للطفل الناشىء خطوة استفتاح للحياة هى خير بلا شك من هوة اللاشيئية الفارغة .

سوف يطرب عباد الكتاب المقدس لتسجيل هذه الشهادة هنا ، غير أنه يجب ألا تلهيهم هذه الشهادة لحظة عن

الاعتقاد فى أنه يمكنهم الآن الدفاع عن إيمانهم بسحره بحجة أنه كان خيراً أن يكون الواحد نوحا أو ابراهيم أو سير اسحق نيوتن من أن يكون شريداً هائماً فى طرقات لندن ، وفى الوقت الذى يندر أن يرى فيه هائمون بعد نفاذ قانون التعليم الأولى الاجبارى .

والذى حل محل سفر التكوين فى الكتاب المقدس الآن ليس هو الجهل المطبق ، ولكنه هو (أصل التاريخ) الذى وضعه مستر ويلس ، وما تعاقب عليه وبعده من المؤلفات المتتابعة التى بنيت على نجاحه الهائل. وفى الواقع تمخضت المائتا عام الأخيرة عن كتلة هائلة من التاريخ والأدب والشعر والعلم والفن أوحت بها نفس الدوافع الخفية التى أوحت بالكتاب المقدس وخلقته تماماً ، وهى فى كل هذه النواحى التى تناولتها تجعل الكتاب المقدس فى موقف مبهم ، وتجعل من رجال الدين جهالا لا يفقهون . واذا كنت تشك فى هذا فحاول أن تنجح فى اختبار يعقد لاحدى الوظائف العامة بأن تجيب على أسئلة الممتحنين باجابات من الكتاب المقدس ، ويجب أن تعتبر نفسك مجدوداً إذا اكتفى الممتحنون باخراجك من الامتحان ولم يعتبروك مجنوناً .

وليس ثمت أمل فى صلاحية شىء مما احتواه الكتاب المقدس من صنوف العلوم التى تناولها ، والتى كانت تعتبر سنداً لا سبيل للباطل اليه ، إلا فى ناحية علم واحد ، هو علم اللاهوت الذى لا يزال بعيداً عن منطقة بحثنا للآن ، والذى يسميه المتفقهون (ماوراء الطبيعة) لأن علماءنا الطبيعيين يستنكرون ويأنفون من تسميته علماً على الاطلاق . بينما لا توجد مظاهر أوثق للدلالة على خبل العقل وغبائه مهما بلغت مظاهر نشاطه من القوة فى نواح عملية أخرى ، من احتقار (ماوراء الطبيعة) . قد يكون الشخص رياضياً نابغاً ، وقد يكون مهندساً متفوقاً ، أو سياسياً ماهراً ، كما قد يكون موفقاً فى اختيار أشواط السباق ، لكنه إذا كان لا يكترث للعالم أجمع طول حياته فلا يعنى حتى بأن يسأل : أى جحيم هو هذا العالم ؟ فانه يكون أحد أولئك الناس الذين وضعهم كلفن فى صف المقدر لهم أن يعيشوا ملعونين طول حياتهم .

وبينما أصبح الكتاب المقدس علمياً لا يتفق مع مقتضيات العصر الحاضر فى اية ناحية ، فانه لا يزال يحتفظ بقيمته فى تسجيل الدور الذى مرت فيه فكرة (الله) التى كانت أول

خطوة لجهود الانسان المتمدين فى تعرف الوجود والأصل والغرض من هذا العالم بقدر مانعرف منه ، وكيف تطور هذا الدور من عبادة ساذجة للرعد والزلازل والمجاعات والقذائف والعمى والبكم والدمار والشياطين الفاسدة المهلكة وما تستطيع كل هذه أن تعمله فى تتابع الليل والنهار ، وفى دورة الشمس والقمر وفى الفصول الأربعة بما فيها من معجزات البذر والحصاد ، إلى دور عبادة البطولة ممثلة فى حكمة خيّرة ، وحاكم عادل ، ووالد عطوف ، إلى أن تصل أخيراً إلى كلمة لفظية لا جسدية ، لن تصبح لحماً مطلقاً ، وهنا يتولى العلم الحديث والفلسفة الحديثة كل الموضوع بما فيه من قوى الطبيعة وعنف الحياة ومظاهر القوة وقابليتها للتطور ، وما فيه من أنواع الموحيات المعنوية ، وأى شىء فى الحياة لا يستمدها ؟

وإذن فدراسة هذا التاريخ الذى يصف لنا تطور نظرية الوجود من العبادة الوحشية الخشنة إلى المعنوية العالية المهذبة ، لا تقل عن أية دراسة أخرى فى طرافتها وفائدتها وتثقيفها لأى عقل مفتوح ولكل باحث مخلص فى بحثه . ولكننا نحن نفسدها جميعاً بما تعودناه من كسل وقذر فى الاحتفاظ بالماء القذر بعد حصولنا على النظيف . والكتاب المقدس

يقدم لنا سلسلة من الآلهة يفوق كل منها من تقدمه كثيراً ،
فيضع بذلك خطوة تحدد تقدم الانسان إلى تصور الطبيعة
صورة أنبل وأعمق مما تقدمتها ، وكل خطوة تزيد فى تطهير
ماء الحياة تدعو إلى افراغ و تنظيف الأوعية تنظيفاً تاماً قبل
ملئها بالماء الجديد النظيف . ولكننا لا نرعى النعمة فنسكب
الماء من ينبوعه الجديد على مافى دلونا القذر القديم من ماء ،
ثم نعيد هذه الحماقة حتى تصبح عقولنا فى خليط قذر يجعلنا
عرضة لأشفاق الملاحدة الذين وان كانوا سذجا إلا أنهم
نظيفو العقول ، لا يعرفون ماوراء الطبيعة ، ولا يشغلون
أنفسهم بمافيه من تعقيدات وسخائف .ورجال الأعمال العمليون
يرفضون مطلقاً أن يخضعوا لمثل تلك الأوهام السخيفة .

ولنأخذ هنا مثلا جاء فى الكتاب المقدس ونحلله تحليلا
مفصلا : رب نوح ورب أيوب . ليسا رباً واحداً . فرب نوح
هو رب غاضب أغرق كل شىء حى على الأرض . ولم يبق
إلا على أسرة واحدة من كل فصيلة فى فورة غضب على
الكائنات الشريرة ، ثم أجاز بعد ذلك لكبير أسرة النوع
الانسانى أن يطلب رحمته « بالرائحة الطيبة » المنبعثة من شواء
كومة كبيرة من اللحم البشرى ! ترى هل يشبه هذا المعبود رب

أيوب ؟ الرب الرحيم المناقش المثقف الفيلسوف الباحث الذى أحسن معاملة الشيطان فى كثير من المواضع ، وراهنه على صبر أيوب وعلى عدم إمكانه إخراج أيوب عن الايمان بالخير الآلهى ؟

ان من لا يستطيع أن يحس الفرق بين هذين الربين لن يجوز أبسط الاختبارات فى الذكاء، ولا يستطيع أن يميز بين المتشابهات والمتناقضات .

والواقع أنه ولو أن رب أيوب يبدو خيراً من رب نوح ، إلا أنه مجادل لا يجيد المناقشة إلا إذا استطعنا أن نفسر هروبه من الهزيمة بالفوز. ولم يصبح لنا وجه للسخرية من أيوب لعدم قدرته على خلق حوت أو تصويره فى صورة الطير بعد أن رفع مشكلة وجود الشر وعدم تناسقها مع وجود الخير المطلق. بينما توجد فى رب نوح روح التشاؤم فى هبته الرعاية لتردد أصدقاء أيوب وهو فى شك من أمر تضحية سبعة عجول وسبعة خراف قرباناً ، ولم تكن محاولة الرب فى الجدل غير تكرار وصقل لسخرية الياهو فى صورة موجزة بل مقتضبة إلى حد أن الانسان لا يستطيع أن يخرج منها إلا بأنها محاولة ماهرة لاخفاء حقيقة بيت القصيد وترك مشكلة خلق الشر قائمة بلا

حل ، ونقد أيوب قائماً لا جواب عليه إلى الوقت الذى استطاع تطور الخلق أن يفسره تفسيراً حقيقياً .

فاذا وصلنا إلى ميكا وجدناه يلقى الماء القذر بلا خوف ، فهو لا يأخذ برب نوح ولا حتى برب أيوب بعجوله السبعة وخرافه السبعة ، بل يرفع نظرية فهمه لله إلى أقصى حدود الرفعة التى بلغها استنكاره الوحشى للضحايا الدموية ، والتى جعلت تساؤله الموحى به يقول وهو يوحى (وماذا يريد ربك منك أكثر من عمل الحق ومحبة الرحمة وأن تسير معه فى خشوع وطاعة ؟) وقبل أن يتم فوز تلك الروح الانسانية على الخرافات العقيمة كان ربا نوح وأيوب أدوات لعب يهزأ بها . ثم انتهى أمرهما الآن ، ومع ذلك فبدلا من أن نعلم اطفالنا أن يهللوا لهذا الفوز الهائل الذى تغلبت به الحاسة الانسانية على مجرد الفزع الحيوانى من العفاريت والجان ، أصبحنا نلقنهم أن آله ميكا وآله أيوب وآله نوح هى أسماء مختلفة لآله واحد ، وأن كل طفل صالح يجب عليه أن يحترم روح العدالة والرحمة والتواضع بقدر ما يحترم شهيته لذبح الضحايا البشرية واحراقهـــا قرباناً . ثم نجمع هذا الخلط العجيب والاحترام السخيف ونسميه « ديانة » .

ويأتى بعد ذلك عيسى فيخاطر بخطوة أوسع وهو يقترح أن الرأس الآلهى شيء يدمج نفسه فى الآنسان ، وفى شخصه هو مثلا وسرعان ما قذفه سامعوه بالحجارة وقد روّعهم ادعاؤه واعتقدوا انه ليس إلا محاولة جريئة من جانبه لتمثيل يهوا ، وهذا الفهم الخاطىء الذى يشبه نظرية الماء القذر أصبح جزءاً من الدين بعد ثمانية عشر قرناً حسب نظرية عمانويل سويدنبورج . إلا أن ماطلع به عيسى من اقتراح لم يفسد بعد ، يسمو على دين ميكا من ناحية أن الانسان الذى يخشى رباً يراه ويحسه يكون مخلوقا لا قيمة له إلى جانب الانسان الذى يعمل كأداة لله وقطعة مجسمة منه لا يرشده فى طريق عمله غير شعاع من النور المقدس فى داخله . وهذا هو بالتأكيد أعظم الفوارق بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس . ومع ذلك فما زال الماء القذر يلعب دوره فى افساده أيضاً ، لأننا نجد بولس يصور المسيح فى صورة « قربان وضحية لله ذات طعم طيب الرائحة » فهبط بالمسيحية وهو يصورها هذا التصوير إلى مستوى نوح ، ولا يسمو غيره من الرسل فوق هذا المستوى ، وتكون النتيجة أن ينهار الصرح الذى شاده ميكا وعيسى ، وتصبح المسيحية التاريخية

وقد بنيت على مذابح قرابين يهوا ، وعيسى هو القربان ، ولا يعلم أحد ماذا كان عيسى وميكا يقولان لو أنهما رجعا ورأيا اسميهما وعقيدتيهما تلتصق بالمعبودات التي كانا يفزعان منها ويحرمانها . لا يستطيع أحد أن يتصور موقفهما من هذه الحالة إلا أولئك الذين يفهمونهما ويعطفون عليهما .

لقد كان من الجائز أن يوجه اللوم لعيسى على اختياره لتلاميذه اختياراً غير صائب ، هذا لو صح أن نعتقد انه اختار حقيقة ، إذ تأتى على الأنسان فترات يرى نفسه فيها مسوقا الى أن يقرر أن ليس فيهم مسيحي واحد ، وأن يهودا هو وحده الذي بدت منه بعض مظاهر الذكاء إلى جانب عيسى الذي كان جبار العقل نفاذ البصيرة إلى حد كان يفوق مدى تفكيرهم فعبدوه كانسان فوق مستوى البشر ، وجعلوا منه ظاهرة معجزة ، واتخذوا من سعة حيلته نواة لعقائدهم السخيفة في السحر والطوفان وفي الاحساس والرهبنة وفي المثل الأخلاقية البسيطة وعقوباتها الجزائية ، التي وان كان بعضها محترماً وشريفاً ومناسباً إلا أن شيئاً منه لا يتناسب مطلقاً مع المستوى العقلي لعيسى ، وكذلك كان هذا الشيء سيئ الأثر بخصوبته في اثارة فظائع الحروب الدينية الأخيرة من إحراق

اليهود إلى سائر الاضطهادات التى أخرجتها الكنائس المسيحية المزيفة بمجرد قدرتها على الاضطهاد .

وجاء موت عيسى لسوء الحظ معيناً كبيراً على نشر صيته وتشويش نظريته . فقد كان الرومان يعدمون مجرميهم السياسيين بالقائهم من فوق حجر تاربيا الى هوة سحيقة ، ويختصون العبيد الثائرين بالصلب . وقد صلبوا فعلا ستة آلاف ثائر من أتباع سبارتاكوس لمائة سنة خلت قبل أن يقدم لهم الكاهن الأكبر لليهود عيسى كمشاغب ثائر منهم . وكان طبيعياً أن يعذب ثم يقتل بهذه الطريقة البشعة ، التى فاقتها نتيجتها بشاعة ، اذ جعلت من الصليب وأدوات التعذيب رموز ذلك الدين الذى حققت مشروعية اقامته باسمه بعد ثلاثة قرون ، ولا يزال العالم المسيحى بأسره يعترف بها للآن ، وأصبح الصلب عند الكنائس مماثلا لغرفة المفزعات فى مصنع نماذج شمعية : معينا قوى الأثر فى نفوس المصلين من الأطفال والكبار السذج . وهكذا خلط ماء عيسى النظيف الذى أوجده فى الحياة بأوسخ مافيها من ماء قذر أتت به عبادات أجداده المتوحشين .

وزادت الأمر تعقيداً تلك الحقيقة المؤلمة التى جعلت

عيسى نفسه ، وقد عصفت به عوامل اليأس التى ذهبت بتوازن سويفت وراسكن وكثيرين غيرهم ممن اطلعوا على فظائع الانسانية وظلمها وبؤسها وجنونها وعجزها السياسى الذى يبدو لا أمل فيه ، وربما كان مما زاد الأمر تعقيداً أيضاً عبادة تلاميذه له ومن ورائهم الناس ، كل هذا جعل عيسى نفسه يبيح لبطرس أن يجعله يعتقد أنه المسيح ، وأن الموت لا يستطيع الوصول اليه ، ولن يمنعه من العودة إلى العالم ليحكمه ويؤسس ملكه على الأرض إلى أبد الآبدين . وكما أن هذا الاعتقاد الخاطىء نقل إلى عقول تلاميذه بنفس السهولة التى كانت نظريته الاجتماعية ترفرف بها على رؤوسهم فان « الصليبية » توطدت دعائمها على نفوذ عيسى نفسه . ثم حدث بعد ذلك ، وفى نشوة تخدير من خيالات عجيبة لم يسبق وقوعها أخرجت حكمة « الرفع » الى فوهة المدفع وقدرت ألف سنة لمدة يجب أن تنقضى قبل أن يعود عيسى كما وعد . وفى عام ألف بعد المسيح سقط آخر أمل فى احتمال العودة الموعودة . لكن الناس كانوا فى ذلك الوقت قد ألفوا الامهال بسهولة قبولهم لفكرة تأجيل العودة الموعودة وارتقاب العودة الثانية . وهكذا بقيت المسيحية المزيفة وستبقى دائماً تنقض نفسها .

والمسألة كلها خليط عجيب لم يحفظ له بقاءه سمو أفكار عيسى عن أفكار الكافة فقط، لكن ساعد فى بقائه هذا الخليط الذى تلت ظهوره فترة خمود فى المدنية البشرية نسميها نحن «العصور المظلمة» فلا بد لنا الآن أن نفطن الى وجوب التقاط طرف الخيط لأفكار المسيح المتقدمة جداً، وإلى وجوب تخليصها من الخلط الذى مزجها به الرسل وأتباعهم.

ولم تنقض غير ستمائة عام بعد المسيح، حتى أوجد محمد الاسلام فأحدث به انقلاباً جسيما من مجرد عبادة الأجرام والأصنام إلى نظرية توحيد مستنيرة جداً. ولكن برغم أنه مات فاتحاً، فاجتنب بذلك تنصيبه ألعوبة كبرى فى غرفة المفزعات العربية، إلا أنه تبين استحالة حكم اعرابه إلا بوعد المؤمنين منهم بنعيم ومتاع، ووعيد الأشرار بعذاب ورعب أبدى بعدموت أجسادهم. كذلك بعد ابداء بعض الاعتراضات الخالصة على قبول ذلك الخلق الفوق البشرى الذى خلعته عليه خرافات أتباعه الساذجة، يكون هو أيضاً بحاجة الى بحثه ودراسة طبيعته دراسة حقة خالصة قبل أن يتمكن الاسلام من أن يعود الى الأرض بقدميه.

والآن أظن أن مغامرات البربرية فى بحثها عن الله، كما

أتخيلها أنا سوف لا تحير أحداً ، اذ يكاد يستحيل وقوعها لفتاة بيضاء انحدرت من مهدها إلى أحضان المسيحية المزيفة التي تبثها الكنائس . وقد صورت البربرية تأخذها مبشرتها من خرافات قبيلتها الأصيلة إلى اغراق في الكتاب المقدس بما احتواه من الآلهة تبين خطوات التطور في فهم نظرية الله مذ كان يصور مارداً مخيفاً فأصبح أباً ثم روحا بلا جسم ولا أجزاء ولا عواطف ، حتى صور أخيراً في صورة الروح التي تمثلها كلمات (الله هو المحبة) . فمع الآلهين الأولتين لعب صولجانها دوره ، وكانت فيه الكفاية ، غير أنها عند ما تصل إلى النهاية تجد أن المحبة ليست كافية (وذلك ما اكتشفته أيضاً إديث كافل عن الوطنية) وانه خير لها وأعقل أن تأخذ بنصح فولتير فتزرع حديقتها وتربى صغارها من أن تقضى حياتها متصورة أنها تستطيع أن تجد تفسيراً كاملاً لهذا العالم وهى تسير فيه بصولجان فى يدها .

ومع ذلك فقد كان للصولجان شأنه عند ما كان الطريق خالياً . والايمان بالظواهر فقط لا يؤدى الى معرفة شيء ما . كما أنه إذا ما أثيرت مسألة رب نوح لتوضع فى صلب المدنية العالية ، سواء استمر أطفالنا ينشأون على عبادته

ويكفرون عن خطاياهم بتقديم الضحايا له، أو بما هو أرخص من ذلك من التستر وراء ضحايا غيرهم له ، فأن كل انسان فى العالم يتردد لحظة فى أن يهوى بصولجانه بكل قوة وقصد ليحطمه لا يكون أهلا للقيام بعمل من الأعمال الجدية فى حكومة دولة حديثة منظمة .

وبعد . فان أهمية رسالة تصل إلى احداث هذا الأثر فى الأزمة العالمية الحاضرة استقرت فى أعماق نفسى فأخرجها وحى القلق الطارىء فى هذه القصة بدلا من أن يضيف الى كتلة الأدب المسرحى المقلقة فكاهة مسرحية جديدة .

النهـــاية


Bibliotheca Alexandrina
04600078